زحف القديسين من المجاز الى الحقيقة

نذهب إلى الحرب، ولكن على مضض!!

منير العكش

«الولايات المتحدة – يحدّها من الشمال القطب الشمالي؛ ومن الجنوب منطقة الأنتركتيكا [القطب الجنوبي]، ومن الشرق يحدها الإصحاح الأول من سفر التكوين، أما من الغرب فحدودها يوم القيامة».

Arthur Bird، Looking Forword (١٨٩٩)

«أهلي ليسوا في أميركا. إنهم يعيشون تحت أميركا».

– رجل دين سلافي، ١٩١٠

– I –

في مكتبة كوب The Coop بساحة هارفرد مقهى أرتاح فيه عادة كلما أرهقني العمل أوأحببت تقليب صفحات بعض المنشورات الجديدة التي أكره شراءها. ذات مساء، بعد زيارة طويلة للصديق

صالح عبدالجواد- وكان استاذا زائرا في جامعة هارفرد- عثرت في هذه المكتبة على كتاب وثائقي طريف[1] يضم معظم الخطابات التي برر بها ٢٤ رئيسا أميركيا حروبهم.

في الكتاب مئة وخطبتان تتكرر مفرداتها وتعاد حججها من حرب إلى حرب، ومن جيل إلى جيل، كأنها تتقمص وتتناسخ ولا يتغير فيها إلا الزمان وعناوين الموتى: أميركا «أكثر الأمم حبا للسلام. وهي لا تذهب إلى الحرب إلا على مضض» (الرئيس وودروولسونWoodrow Wilson). وهي في كل حروبها لم تقتل إنسانا، فكل ضحايا هذه الحروب التي تتحدث عنها خطب الرؤساء كانوا «وحوشا» أوكانوا ينتمون بنسب متفاوتة إلى البشر، ويحتاجون إلى شيء من التأهيل «الحضاري» قد يقتضي بعض التعديل في خَلقهم أوخُلُقهم أوأعمارهم، أويحتاجون إلى قدر محسوب من التنظيم لعلاقتهم بالثروات الطبيعية في «البراري» أو«المجاهل» أو«الأراضي البور» التي يسكنونها، وذلك بما يعود بالخير والسعادة والرفاه على «ثروة الأمم».

مشهد مهيب واحد تعرضه هذه الخطب لآخر مئتي سنة من زحف القديسين[2] القدري من المجاز إلى الحقيقة؛ من أرض «كنعان الانكليزية الجديدة New English Canaan»[3] إلى أرض إبراهيم الإنكليزية الجديدة. الخطب جمعها المؤرخ رَسل بوهايت Russell Buhite عميد كلية العلوم والفنون في جامعة ميزوري-رولا Missouri-Rolla، وقدم لها بمقدمة نقدية لاحظ فيها أن الرؤساء جميعا أضفوا على حروبهم طبيعة «خيرية benevolent» تهون في سبيلها الضحايا والتضحيات أوما يعرف في قاموس الحروب الأميركية بالأضرار الهامشية collateral damag، وأن لخطبهم التي تضمنت «نداءات عاطفية للدفاع عن النفس» أو«لنشر الديمقراطية» أو«لحماية الأرواح والممتلكات» أوغير ذلك من المهمات الرسالية النبيلة دائما هدفا عاما هو«التضليل misleading». [4].

وعلى الرغم من الطبيعة التاريخية للمقدمة، فإنها تضمنت بعض الملاحظات الأدبية السريعة فأشارت مثلا أن أبراهام لنكولن كان أبلغ الرؤساء خطابية، وأن الرئيس الحالي «استهتر بكل القواعد وكسّر اللغة»[5] مع ما كسّر من أشياء جميلة كثيرة ألحقت بالأضرار الهامشية.

***

للعودة إلى البيت من ساحة هارفرد، لابد من المرور بإشارتين ضوئيتين لعل أكثر ما تضيئانه هوالوجه الذي تعنيه خطب هؤلاء الرؤساء بالتضحية التي يجب على الأمة الأميركية تقديمها في

حروبها «الخيرية» :

الأولى، عند تقاطع الساحة مع شارع «غاردن Garden» . هنا، حيث يختنق التقاطع بالسيارات والمارة في الصباح والمساء، يقامر رجل معوّق بحياته فيقفز بين صفوف السيارات مستجديا لقمة عيشه. إنه (أولعله) مشرف على الستين من عمره، يتعكّز على عصا، يمسكها بيد، ويمسك بيده الأخرى «كرتونة» مقتطعة من علب الدكاكين السمراء كَتَب عليها : «محارب قديم، جائع، وبلا مأوى».

الإشارة الثانية، تنتصب على تقاطع أخطر وأشد ازدحاما تخرج عنده من كامبردج إلى جارتها «آرلنغتونArlington» أوإلى الطريق السريعة رقم ٢ . هنا تلتقي بمحاربيْن قديميْن يتناوبان على قمار الموت في أوقات يبدوأنهما يتفقان عليها. الرجل لا يختلف عن رفيق السلاح في ساحة هارفرد إلا في العاهة، فهولا يعرج ولا يتوكأ على عصا بل يكشف صدره عن جرح قديم عريض ذي قُطَب عنبية يمتد من أعلى عنقه حتى بداية ثديه. أما المرأة فيبدوأنها ضريرة تهتدي بعيون كلبها الأسود الذي يلازمها ويحرسها. إنها تقف على حافة المستديرة المزينة بالعشب والزهور صيفا وبالثلج شتاء، لا تتحرك منها. إلى جانبها عربة معدنية صغيرة من عربات المخازن الكبرى محشوة بأكياس قمامة سوداء بالية مغبرّة، من الواضح أن فيها كل ما أبقت لها «ثروة الأمم» من أوسمة الحرب التي أعطبتها ورمتها في غابة العمى.

الرجل والمرأة ومعظم هؤلاء المعطوبين الذين حصدتهم الحروب «الخيرية» من حقول الفقر والطبقات الدنيا؛ من السود، والملونين، والهنود، والطلاب الذين ربطتهم وزارة الدفاع بجنزير في أعناقهم[٦] ، ومن المهاجرين الجدد الحالمين بالجنسية، ومن المعذبين في الأرض، فأغرتهم بالمنّ والسلوى، وسمّتهم بالأبطال، وزينتهم بالنياشين، وأغرقتهم بالأحلام، وربطت كرامتهم بكرامة العلم المتلألىء بالنجوم، هاهم مذلون مهانون جائعون بلا مأوى، لم تبق لهم «ثروة الأمم» من وطن سوى عراء الصيف، أوكيس من البلاستيك في الشتاء يندسون فيه ليلا وينامون في أرض كنعان الواسعة، ولم تترك لهم من عَلَم سوى هذه «الكرتونة» يزينون بها معظم مفارق الطرق، ومداخل قطارات الأنفاق وأبواب السينما والمسارح والكنائس وحدائق البيت الأبيض وأرصفة البنك الدولي. بعضهم يتعمد مجابهة عينيك بملابس الحرب المرقطة وبعضهم لا ينسى أن يحلّيها بالأشرطة والنياشين التي علاها القذر ولم تعد تصلح حتى للاستجداء.

***

للجنرالات وطن آخر. إنهم منذ انتهاء الحرب الأهلية في عام ١٨٦٥ يخرجون من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر؛ من سفك الدم إلى تقطيره في المصارف؛ تتلقفهم الشركات الكبرى لاستغلال مواهبهم في رسم استراتيجيات اقتصادية لا تقل «خيرية» عن استراتيجياتهم الحربية. والمعادلة في حساب «ثروة الأمم» بسيطة جدا: لكي يستطيع «ماكدونالد» ملء بطون فقراء العالم بالهمبرغر لابد أولا من إرسال طائرات «مكدونالد دوغلاس» وصواريخه لتزيين سماوات هؤلاء الفقراء بالمشاعل النارية.

العام الذي انتهت فيه الحرب الأهلية شهدَ زواجا تاريخيا بين «فكرة أميركا» بأهدافها الثلاثة، وثوابت تاريخها الخمسة[٧]، وبين «ثروة الأمم»، هوالذي أعطى مهمة استعباد من استعصى عن الموت كنعانيي العالم الجديد طابعا نفعيًا لا تحيا الأسطورة التاريخية بدونه، بينما احتفظ بطابع القداسة لاستعباد من طاردتهم الأسطورة ولهثت في أعقابهم آلاف السنين.

الطرفان على جبهة هذه الحرب، وهم في معظمهم ممن يعرف بالزنابير WASPs[٨]، أدركا أن «ثروة الأمم» تنقذ فكرة أميركا من الانتحار، وتقدم للمتحاربين جميعا تسوية رابحة لمسألة العبودية.

في هذا العام الذي كشف فيه معظم جنرالات الحرب الأهلية عن عبقريتهم الاقتصادية، وعن أن «فكرة أميركا» و«ثروة الأمم» كالمسدس للرصاصة، كان الهنود الذين أخطأهم الموت يشيّعون الهزيع الأخير من سيادتهم على ما أبقت لهم الحروب الخيرية من بلادهم، ويحثون التراب فوق معاهداتهم التي حولتها القوة إلى «أوراق للتمسيح»[٩]. صعود هذا يعني هبوط ذاك. وموت هذا يعني حياة ذاك. وفي النهاية، فإن استعباد هذا الكنعاني الأحمر مجازاً (في تجربة مفيدة على الطريق إلى الحقيقة) هومن أعمدة هيكل الأسطورة نفسها، وله قدسية عناصرها الأخرى التي سكنت ولا تزال تسكن هواجس ومخيلات وغرائز كل المؤمنين بها. والزنابير الذين تعهّدوا الأسطورة أكثرهم إيمانا وتسليما وحرصا على الطقوس.

جنرالات الحرب الأهلية هم الذين أطلقوا رصاصة الرحمة على معاهدات الهنود وحولوا «السيادة» و«الحكم الذاتي» إلى مزرعة لتربية الطواويس» حين رسموا للشركات العملاقة استراتيجياتِ «خردقةِ» معازل reservations الهنود (وهي فعليا قماقم متناثرة، يمسك الزنابير بأعناقها وأغطيتها) بسكك الحديد ومناجم الفحم وآبار النفط، وهم الذين حدّثوا

تقنيات مَسخ هؤلاء الضحايا إلى ما لم يخطر على بال أوڤيد. بذلك أخصبوا مخيلة هوليوود بألوان كل ريش الطيور، وأغنوها بكثير من صور «المتوحشين العراة»، وبمشاهد مهينة من دماماتهم وبلاهاتهم وخَرَقهم وعدوانياتهم التي شاعت في أفلام الغرب الأميركي، وبذلك صنعوا من كل طفل أميركي «جون وين»، وأهدوا رؤساء أميركا كنزا من المفردات والعبارات والدعاوى التي شاعت في خطبهم الحربية.

***

كل الأمكنة التي وصلتها حروب الخير، سواء أكانت في أعماق الغابات أم في أرض أعرق الحضارات الإنسانية، كالصين واليابان ومصر والهند مثلا، تحول أهلها إلى برابرة، أومُسخوا إلى حيوانات تتدلى من مؤخراتهم أذناب الخنازير[١٠]. فالله كما يقول مارك توين Mark Twain ساخرا «خلق العالم للإنسان؛ الإنسان الأبيض»[١١]. وإن أي طالب دراسات لغوية مبتدىء يلاحظ في هذا التراكم التاريخي الممل لفكرة «المجاهل» و«الأرض العذراء، أوالخاوية» و«البربرية» و«الهمجية» و«التمدين» و«جئنا لنحرركم، لا لنستعمركم».. الخ، كما تعرضها خطب رؤساء أميركا وأدبيات المستعمرين الأنكلوسكسون في العالمين الجديد والقديم، أنها أحبّ متكآت لغة حروبهم الخيرية.

هناك ما يشبه «الكاتالوغ» وضعه داڤيد سپر David Spurr لهذه المفردات والعناصر الأسلوبية والمنطقية التي ميزت الكتابة الأنكلوسكسونية عن هذه المناطق «المدهشة» التي لا توجد إلا في مخيلاتهم، وعن هؤلاء الوحوش البشرية الذين طبخوهم بالطريقة المشهّية ومع البهارات التي تغري بأكلهم. فهي في كل أشكال تعبيرها «تُزَيّت» آلة الزحف الامبراطوري، حيث ينظر مفتريها بعين خياله وعقدة اختياره؛ ينظر بعنجهية واحتقار إلى هذه الأرض المدهشة وهؤلاء «السكان natives» الأعاجيب الذين احتقر لغتهم قبل أن يسمعها، وشوّه آدابهم قبل أن يقرأها ويفهمها، ومسخهم وسخر من قوانينهم وعاداتهم وأخلاقهم وعقولهم ونظرتهم إلى العالم قبل أن يراهم[١٢].

حتى بعض العادات الحضارية التي قد يمارسها هؤلاء الهمج الملونون يمكن طردها من ملكوت الحضارة واستهجانها بسرعة. فالرحّالة شارلز وورنر مثلا يستغرب حب المسلمين للنظافة الجسدية، لكنه يشكك في جدواها الحضارية التي لا تتحقق إلا ببياض البشرة فيقول في كتابه «مومياءات

ومسلمون»: «يبدوأن هؤلاء المسلمين لا يدركون عَبث تنظيف جلودهم [غير البيضاء] ولم يكتشفوا لا جدوى فركها وحكّها»[١٣].

هذه المتكآت اللغوية [«المجاهل» و«الأرض العذراء» و«البربرية» و«الهمجية» و«التمدين» و«جئنا لنحرركم، لا لنستعمركم». الخ] في رأي سپر –وهومن أبرز المختصين باللغة الإمبراطورية، وله كتابان نقديان عن جويس وإليوت– عناصر ثابتة في الشنشنات الامبراطورية لدى الزنابير، سواء ظهرت في الروايات، أوأدب الرحلات، أوالتحقيقات الصحفية، أوالكتابات والخطب الرسمية. وهي في كل صورها وأشكال تعبيرها أسلحة في المشروع السياسي لبناء الامبراطورية[١٤].

***

مع انتهاء الزحف نحوالغرب (باستثناء تلك «القماقم» التي حُشر فيها من تبقى من همج القارة)، وامتداد عيون الزنابير إلى غرب الغرب؛ إلى عتبات المحيط وما وراء عتباته وعناقيد جزائره، اتسع مفهوم المجاهل wilderness أوالأراضي البور(١٤ أ) wasteland ليشمل كل أرض لا يسكنها أويستثمرها الزنابير. لقد استكملت فكرة أميركا(١٤ ب) في «كنعان الانكليزية الجديدة» كل ما يلزم لانعاش الأسطورة المؤسسة والعودة بها إلى مهدها الأول.

في هذا الإطار، تم تعميم «المجاهل» على كل محطات الرحلة القدرية المقدسة حول كوكب الأرض. لم تُستثن منها قارات كاملة كانت عامرة تعج بالحياة وتنتج أروع الآداب والفنون والقوانين والصناعات يوم لم يكن في الأرض عرق ملفق اسمه الأنكلوسكسون. بذلك خُلعتْ صفة «الهمجية» على أعرق حضارات العالم، في الصين والهند واليابان ومصر ووادي الرافدين.، وسرعان ما تحلى أبناء هذه الحضارات بكل صفات سكان الغابات والكهوف، وصُنِّفوا أنثروبولوجياً مع إنسان جاوة Homo erectus of Java.

***

معظم الأطفال الأميركيين مثلا، لا يعرفون عن أفريقيا أكثر مما شاهدوه في أفلام طرزان، ويعتقدون أن الريش (لا الشَّعر) ينبت في رؤوس الهنود، مثلما يعتقدون اليوم أن الفلسطينيين هم الذين يستعمرون أرض أسرائيل[١٥].

يكفي أن تزور متحف سميثونيان للتاريخ الطبيعي National Museum of Natural History في المنطقة الواقعة بين البيت الأبيض وهضبة الكابيتول لترى هذه التصنيفات العجيبة

لشعوب العالم مجسدة أمام عينيك. هنا تقف حائرا متسائلاً: لماذا تُعرض نماذج من الهياكل العظمية لسكان الصين والهند ومصر ووادي الرافدين ومعظم البلدان التي شهدت ولادة حضارتنا الإنسانية إلى جانب هياكل وعاديات السحالي والسلاحف والسمك والدببة والماموث والديناصورات والحيوانات المنقرضة؟ أين الزنابير؟ أليس لهذا الشعب المختار هياكل عظمية؟ أليس للمتحضرين ذوي الدم الأزرق تاريخ يوصف بالطبيعي؟

هنا ينجز العرض والسرد مهمة خيرية نبيلة. إن مثل هذه التصنيفات العجيبة لحقول «علمية» خُلقت مع بداية حركات الاستعمار الأوروبي، وفي سياقه، جعلت مسألة «تمدين» هذه الكائنات - كائنات ما قبل اللغة، وما قبل الإنسان- لا تختلف عن تأليف الحيوانات التي كستنا بصوفها وغذّتنا بحليبها ولم تبخل علينا بلحمها وشحمها. إنها حتمية قدرية كحتمية تمدين أرض كنعان الإنكليزية «حيث الهنود [الكنعانيون الحمر] والحيوانات يسرحون ويمرحون معاً دون سلاسل في رقابهم»[١٦].

معظم المفردات النبيلة في قاموس «التمدين» الذي يرافق رحلة الزنابير القدرية إلى مغرب الشمس، تؤكد أن فقهاء هذه اللغة ونِطاسييها متفقون على أن ليس لهمج الأرض من ترياق سوى لسع الزنابير، وأن قَدَر هؤلاء الزنابير أن يكتنزوا مزيدا من الشحم واللحم عبر تمدين الشعوب الهمجية وإعمار مجاهلهم وتحرير ثرواتهم و.. عقولهم. هذه حضارة غنية وقَدَرها أن تزداد غنى مهما كانت الضحايا والتضحيات.

وفعلا، فإن كل حملات «التمدين» التي رافقت عولمة «فكرة أميركا» وإعادة صياغة الطبيعة والتاريخ إيقاع الأسطورة، كانت تسعى إلى تكييف حاجات وعادات وأخلاق وأفكار وأذواق «الهمج» لاستيعاب «فائض الإنتاج» الأميركي. وقد كان تمدين المحظوظين الذين استعصوا على الإبادة من الكنعانيين بالغلط ورشةً خرافية للهندسة البشرية سرعان ما تكررت فصوله حيثما رفرفت الراية المتلألئة بالنجوم، وحيثما أنشدَ رسل الحضارة: «مَدّنوْهم ببندقية civilize them with a crag» في الفيليبين وجزائر المحيطات وفي الصين وأميركا اللاتينية والعربية.

***

ما أن وضع جنرالات الحرب الأهلية عبقرياتهم العسكرية في خدمة «ثروة الأمم»، حتى انضم «الازدهار» إلى آيات القدر المتجلي Manifest Destiny الذي أعطى الزنابير حقا إلهيا جديدا

بالتوسع اللانهائي في أراضي الهمج، وأهداهم مبررا إضافيا لعولمة «المجاز الكنعاني» وترجمة «فكرة أميركا» إلى كل لغات العالم القديم، بخلق الحاجة إلى استهلاك «الوفرة» غرق الزنابير حتى شعفة رؤوسهم في صناعة بشر الأرض من جديد، وُصفت كلها بحملات التمدين، واحتاجت كلها إلى الحروب الخيرية و«الهضم الخيري». من لندن إلى سيدني، ومن كنعان المجاز إلى كنعان الحقيقة، لغةٌ لم يبلها التكرار، ولا رثّها بُعدُ آلاف الأميال عن الدار.

على مدى كل هذه القرون التي تلت الموجة الاستعمارية الأولى، لم تتزحزح فكرة أميركا عن أهدافها ولا تنازلت عن ثوابتها. لم تكن الوفرة التي سخت عليهم بها أرض كنعان لتزيدهم إلا إيمانا بقدرهم المتجلي زحفا وتوسعا مع مدار الشمس، وإلا عطشا إلى استنبات حاجات وشهوات لدى الهمج توحد بين قابليتهم للتمدن وبين إقبالهم على استهلاك ما يراد لهم استهلاكه.

لقد اكتشفت «ثروة الأمم» أن في ملك الهمج أن يتولوا وظيفةً مضاعفة في هذا القدر المتجلي، فَبِهِمْ تتعولم «فكرة أميركا»، وبهم تزدهر هذه الثروة وترضي الرب.

بِقَدْرٍ معلوم من التنقيح في خَلق هؤلاء الهمج والتشريح في أخلاقهم وثقافاتهم يُسخرون لإحدى الحسنيين: إما للعمل في صناعة هذه الوفرة وإما لاستهلاكها.

إن ازدهار «ثروة الأمم» يعتمد على تهييج المتوحشين على استهلاك ما يصنعه إخوانهم المروَّضون على إنتاج «الوفرة» لحساب الزنابير.

وفي الحالين أسندت «فكرة أميركا» تمدين هذين المسَخَّرَيْن (قدرياً، وطبيعياً، وإلهياً، وما تَشائياً) لازدهار «ثروة الأمم» إلى عبقرية الجنرالات، وأنقذت «الجلاد المقدس» بذلك من فظاعة الضجر.

***

فجر جديد في أفق كنعان الإنكليزية، وشمس القدر المتجلي التي ملأت بأشعتها القارة بدأت تذر قرنها على جزائر المحيط وتقترب من شواطىء الصين. الرئيس مكنلي تحدث مع الله [١٧] ليلاً في أروقة البيت الأبيض، وتلقى منه ألواح تمدين الفيليبين وهداية وثنييها.

في تلك الفترة التي فاضت فيها وفرة الأرض المنهوبة عن حاجة كل من فيها، صارت حملات «التمدين» تجري على وتيرة «فضل الإنتاج» أوعلى ما يشتهيه «الازدهار»، وصار قدر الزحف نحوغرب الغرب يتضمن فيما يتضمن استثمار ميتافيزياء كراهية الكنعانيين في مشروع «التمدين».

وهذا ما استلزم خلق أساطير جديدة عن واقع الآخرين تسمح لأميركا (كما يقول جوسيا سترونغ Josiah Strong أحد أنبياء تمدين العالم في كتيب بعنوان «بلادنا») بالزحف –ماديا وروحيا– إلى حيث يمضي بها قدرها المتجلي دون خوف على النقاء العرقي للزنابير.

إن عظمة هذا العرق لا تكمن في حضوره في كل مكان من العالم وزحفه نحو مناطق أخرى وشعوب مختلفة، بل تكمن أيضا في إعادة صياغة طرق حياة هذه الشعوب باسم الحضارة [التي يحتكرها الأنكلوسكسون]... ولأنها حضارة روحية ومادية، فإن تصدير المثالية المسيحية سوف يمضي يدا بيد مع تصدير الأقمشة والبضائع المصنعة... لقد آن للعالم، كل العالم، أن يتنصّر ويتمدّن... وهل إجراءات التمدين إلا أن تخلق في الهمجي احتياجات أعظم [للاستهلاك] وشهوات أقوى؟ إن التبشير سوف يعبّد الطريق للتجارة، وإن الملايين في أفريقيا وآسيا يشعرون اليوم بالحاجة إلى حضارتنا المسيحية. إنها تنبض في عروق أفريقيا وتشيع الحياة في جنوب أميركا. وها هي العظام الرميم dry bones لآسيا تتململ، فالنَفَس الدافىء الذي تبعثه حضارتنا يكسو أضلاعها لحما... مما سيضيف هذه القارات إلى أسواقنا، ويجعل من الولايات المتحدة مشغلا workshop جبارا للعالم كله»[١٨].

وفي كتاب سترونغ أكثر من تصريح وتلميح إلى أن تصميم الله لمستقبل العالم يعتمد كليا على الأنكلوسكسون، وأن هذا الشعب المختار –من وجهة نظر داروينية مُلَهوتَة– هو المؤهل لصناعة مصير الإنسانية.

حتى فردريك تيرنر فيلسوف الثغور [الحربية] الذي ذهب إلى أن قدر رسالة «التمدين» الأميركية أن لا تطفىء حربا إلا بنار حرب جديدة، نشر كتيبا طريفا عن التجارة مع الهنود في وسكنسون بنى فيه للعروسين السعيدين «فكرة أميركا» و«ثروة الأمم» بيت الحجال، ثم ربط قدَرَهُما بالثغور الحربية التي تركض أمامها الشمس. لقد أفاد تيرنر كثيرا من الاقتصادي الاستراتيجي ألفرد ثايرماهن Alfred Thayer mahan العسكري البحار المخضرم والأستاذ في الأكاديمية الحربية الذي ربط مصير أميركا بالثغور الجديدة في المحيط. وعلى الرغم من كراهيته وخوفه من البحر، فإنه دعا في كتابه «تأثير القوة البحرية على مسيرة التاريخ The Influence of Sea Power upon History» إلى التنسيق بين «الوفرة» الأميركية وبين الاستعمار والفتوح البحرية التي وصفها بأنها «ترياق التاريخ».

وبمنطق داروني، كان يومها صرعة معظم حقول الدراسات «الحديثة»، أطلق بروك آدامس Brook Adams نظريته عن دور «ثروة الأمم» في «نشوء وانهيار الحضارات»[١٩]، سرعان ما طورها في كتابه «سيادة الاقتصاد الأميركي» الذي وصف فيه الدولة الأميركية بأنها «شركة عملاقة» لا بد لها من التوسع في الأرض وتمدين العالم إذا كانت تريد البقاء وتؤمن فعلا بأنها أصلح الأمم[٢٠]. وبالتأكيد، لم تكن زيارة الله ليلا للرئيس مكنلي في البيت الأبيض ودعوته إلى تمدين الفيليبين والكوبيين إلا مباركة لهذه الأفكار.

***

لطالما تحولت مأساوية هذا التمدين الخيري الذي تسخوبه «ثروة الأمم» على همج الأرض إلى مادة أدبية أوفنية ساخرة. ففي أول مجموعة قصصية نشرها O Henry، بعنوان «ملوك وملفوف Cabbages and Kings»، يروي قصة ديبلوماسي أميركي التقى مصادفة في أرض متخيلة اسمها «أنشوريا» ببائع أحذية أميركي كان رفيق صباه.

كل سكان البلدة «كورواليو» التي التقيا فيها كانوا حفاة عراة. هناك ثلاثة آلاف إنسان في هذه المدينة يمشون حفاة في الطرقات وليس في العالم بشر أحوج إلى الأحذية منهم. ومع ذلك فليس في «كورواليو» بائع أحذية واحد. والحال غنية عن الشرح، فالعلم بالحال يغني عن السؤال. هكذا شكا بائع الأحذية إلى صديق طفولته مرارة الكساد. لقد تجشم ما تجشم وأنفق ما أنفق ليحمل إلى همج أنشوريا أبدع صناعة الأحذية الأميركية وليخطوبهم على طريق الحضارة، وها هم يقابلونه بالجحود.

لكن الجنتلمان بائع الأحذية لم يعدم حيلة، ففي كل «جنتلمان» «سوپرمان» يطير في الوقت المناسب. إن سكان أنشوريا لا يشعرون بالحاجة إلى الأحذية، فليَخلق لهم سوپرمان هذه الحاجة. هكذا استورد كميات هائلة من الشوك السام ورماها في دروبهم مما اضطر الهمجي إلى شراء الحذاء الأميركي مرفقا بشهادة متحضر.

***

لهذا الشوك السام المُهدى دائما مع أرق عواطف الحنان والشفقة والحميّة الرسالية[٢١] لغة سحرية تُمني القارىء والسامع باليوم الذي تَعْمُرُ فيه مجاهلُ كلِّ كنعانٍ مشتهاة بما عمرت به پليموث وجيمستاون من سيدات شقراوات تزين رؤوسهن قبعات كبيرة معروشة بالزهر، وأن لا يبقى في

شوارعها وحقولها سوى بشر كاللؤلؤ المكنون يتلذذون صباحا بالبايكونbacon[٢٢]، ويتهافتون على قُدّاس الآحاد، ولا يحلمون إلا برؤيا يوحنا البطمي.

فنيّاً، لا بد لهذا المشهد القيامي من ديكور مسرحي تُعرض فيه عينات أثرية من «السكان الأصليين natives»، لعل واحدة من فتياتهم البدائيات نصف العاريات تُغرم بالجنتلمان الأبيض الساحر وتفتح له، مما تفتح، أسرارَ «قبيلتها» ومخابىء كنوزهم وأسلحة أبطالهم، كما سحر الكابتن جون سميثJohn Smith مؤسس مستعمرة جيمستاون الفتاةَ الهندية پوكاهنتا Pocahontas ، وكما يَسحَر جيمس بوند بنات الأشرار المجرمين، ويسحر رُسُلُ الحضارة اليوم فتيات «أبوغريب».

«إن القرون الثلاثة الماضية التي انتشر فيها الأنكلوسكسون في مجاهل العالم لم تكن أبهى ملامح الإنسانية وحسب، بل كانت أيضا أعظم أحداث التاريخ وأشدها أهمية وأبلغها تأثيرا»، كما يقول الرئيس روزڤلت. وفي كتابه عن أفريقيا الكثير من هذه الأضغاث[٢٣]. لقد كتبه كما يقول عنوانه البليغ بلسان «صياد أميركي». وقدّم له بمقدمة ذات دلالة عن غرامه بالتاريخ الطبيعي.

من هذا المنطلق الطبيعي، لم يترك روزڤلت شعبا على وجه الأرض لم يرشحه لمتحف التاريخ الطبيعي. فالأفريقيون دون استثناء «عراة همج لهم أشكال القرود، يسكنون في الغابات ويفترسون وحوشا ليست أكثر منهم وحشية، أوأحط منهم خلقة. وإن كل القارة مسكونة بأحط أنواع البربرية» وهذا ما كتبه أيضا عن الصينيين وعن سكان أميركا اللاتينية[٢٤]، وباللغة والصفات التي وُصفت بها الجزائر على لسان سلفه الصالح جيمس ماديسون James Madison في خطبة حربه على هذا البلد العربي المسلم. (٢٣ فبراير / شباط ١٨١٥).

***

منذ أن نشر داروين «أصل الأنواع» انكبت العلوم الطبيعية والإنسانية في العالم الانكلوسكسوني على إثبات أن «البقاء للأصلح» يعني أن «البقاء للزنابير»، وأن «الانتخاب الطبيعي» يعني «الاختيار الإلهي» لهم، وأن هذا كله من فضل الله الذي «اختار» الأنكلوسكسون، وبارك حروبهم الخيرية، ومن آيات «القدر المتجلي Manifest Destiny» الذي يقود زحفهم من غرب إلى غرب، فإلى حيث يلج الليل في النهار.

بهذه الداروينية اكتشفت «فكرة أميركا» لأهدافها الثلاثة وثوابت تاريخها الخمسة لغة ومبررات

علمية حديثة سرعان ما استُثمرت إضافيا في التنظير للتفوق العرقي والاقتصادي والسياسي والأخلاقي والثقافي. . . الخ وفي التبرير لدورها الرسالي وحروبها الخيرية. بهذا التنظير أعطت لنفسها دور القهرمان على الأنظمة السياسية المختلفة والأنظمة الاقتصادية المشاكسة لثروة الأمم، وبررت به «تهميج» ما تريد تهميجه من أخلاق وثقافات الشعوب.

لقد بنى تشارلز داروين للزنابير برجاً إضافيا يُطلون من عليائه على الأنواع السفلى من البشر، ينتقون منهم ما يحلولهم ليمدنوهم، أويمهلون منهم ما يحلولهم إمهاله. ولكل أجلٌ ونصيب من الخير.

من هذا البرج التطوري، صارت الشعوب الهمجية في العالم السفلي مادة للدراسة رأت فيها كل العلوم نافذة مهمة على التاريخ الغابر للمتحضرين الأنكلوسكسون. فالتطور البشري يدل على أن المجتمعات تدرجت من الهمجية إلى البربرية فإلى عرش الحضارة الأعلى الذي يستوي عليه الزنابير. أما هؤلاء الهمج [الذين يمدنونهم اليوم] فيمثلون الحلقة المفقودة في سلسلة التطور البشري الذي يمتد عميقا في الزمن، ولعلهم هم الأمل في الكشف عن الكيفية العجيبة التي تطور فيها الجنتلمان الإنكليزي من القرد»[٢٥]. لكن هناك من ساقه بحثه «العلمي» إلى التأكيد على أن التطور الطبيعي لم يشمل كل من يقال عنهم إنهم بشر، وأن «بعض الشعوب مثل الصينيين واليابانيين والمصريين يلهثون في مؤخرة هذا التطور، وأن بعضها لا يستطيع أن يقلد المتحضرين ويتعلم منهم إلا بالقدر الذي تستطيعه البهائم»[٢٦]. «أي كيمياء تستطيع تغيير طبيعة دمهم؟ . . . كيف يمكن بطرفة عين رفعهم إلى المستوى الرفيع. . . الذي تطلب منا ألف سنة وجعلنا ما نحن عليه الآن نحن الأنكلوسكسون»[٢٧]. هؤلاء الهمج المُخَلَّفون طبيعيا عن ركب التطور هم الذين أوفدتهم أريحية الزنابير ليتعلموا دروس الحضارة في العالم الآخر.

من فوائد مذهب التطور أنه شجع على صقل الجوهرة الأنكلوسكسونية بيولوجياً قبل أن يفكر الألمان بصقل جوهرتهم العرقية بخمسين سنة. فداروين الذي قضى على الضعيف بالانقراض الطبيعي، حذر من الاهتمام الصحي بالضعفاء وأثار المخاوف من العناية الفائقة بهم، لأن ذلك سيزيد من ضعفاء المجتمع المتحضر. بذلك صار القضاء الحتمي على الضعيف ينطبق أيضا على كل مستضعف. «إن كل الذين عملوا على تهجين الحيوانات الأليفة يعرفون أن هذا [الاهتمام الصحي بالضعفاء] يضرّ النوع الإنساني»[٢٨].

وفعلا، فقد استثمرت تجارب «التهجين» طبيعيا وسياسيا لدعم «الانتخاب الطبيعي» للانكلوسكسون وتحسين شروطه. وكان فرانسيس غالتون Francis Galton (قريب داروين لأمه) أول المشتغلين في هندسة الذكاء العنصري في تاريخنا البشري. ولأنه كان يرى أن بإمكان «التهجين» أن يتحكم بالذكاء، فقد نذر حياته لهذا العلم الذي سيَنعمُ «العرق» الأنكلوسكسوني بخيره العميم [٢٩].

ولم يتخلف الزنابير عن أهلهم في الجزيرة الأم، إذ سرعان ما أفادت «فكرة أميركا» من علم الخلايا الوراثية وتحسين النسل، وشاع التصنيف والتوصيف لكل من ليس زنبورا في أرض كنعان. لم يعد الأدب العنصري يحفل بأولئك الملونين السود أوالهنود في درك السلم البيولوجي فقد فرغ الأمر منهم، وقنطت عبقرية التمدين والتهجين والهندسة الحيوية من ملكاتهم العقلية، ففي النهاية لن يصلح العطار ما أفسد اللون.

صقلُ الجوهرة الانكلوسكسونية يقتضي كذلك حمايتها من كدر المهاجرين البيض وغير البيض. لهذا، لم يكد يغلق القرن أبوابه حتى أسس الزنابير عشرات المنظمات «العلمية» التي نذرت نفسها للحفاظ على بريق الجوهرة وحمايتها من الكدر. كل هذه المنظمات والروابط استثمرت علم الوراثة وتحسين النسل في شنشنتها البلاغية وفي مرافعاتها أمام الكونغرس عن خطر المهاجرين غير الانكلوسكسون. أثناء مناقشة قانون «تحديد الهجرة» فى الكونغرس، سأل نائبٌ زميلَه:

جيمس مكلافرتي James H. MacLafferty (جمهوري عن كاليفورنيا): هل يفكر الزميل المحترم في أن يكون الهدف الأساسي من هذا القانون هوالتمييز العنصري بين بعض الناس؟

جيمس أوكونور: James OConnor (ديمقراطي من لويزيانا): : أظن أن اللجنة [التي تناقش القانون] ومقترحي هذا القانون يعتقدون أن من الضروري التمييز العنصري بين الناس للحفاظ على مثاليات هذا البلد وأهدافه العليا.

مكلافرتي: هذا كلام طيب. هل ستميز عنصريا ضد الأعراق الآسيوية؟

أوكونور: أعتقد أن هذا تقليد متجذر في أميركا.

مكلافرتي: تقصد التمييز العنصري؟

أوكونور: نعم

مكلافرتي : وهل هوضروري؟

أوكونور : قد يكون ضروريا .

مكلافرتي : وهل للتمييز العنصري مبرر؟

أوكونور : أحيانا .

مكلافرتي : أحسنت قولا . [٣٠] .

* * *

منذ أن أنقذت «ثروة الأمم» «فكرة أميركا» من الانتحار وقدمت لطرفي الحرب الأهلية كليهما تسوية رابحة، وإخراجا نافعا لمسألة العبودية لا يتنكر لطبيعتها الخيرية، صار «المهاجرون الفقراء، بعد الله، أكبر مصدر للثروة الوطنية» [٣١] . الأميركية ، فقد التحق معظمهم، وبدرجات متفاوتة، بركب العبيد «المحررين» في المزارع والمصانع، وتقاسموا معهم الخبز و«الدونية» وصناعة الازدهار، كما يروي ساكستون صاحب الشاهد السابق في رواية طريفة له بعنوان «بيت عنكبوت متألق في الظلام Bright Web in the Darkness» .

أكثر من ٢٦ مليون مهاجر جديد من كل بلاد البياض وصلوا إلى أرض كنعان الجديدة فلم يشفع لهم البياض، ولم يجدوا لهم أهلا أرحب من أهلها الحمر و«المحررين» من عبيدها السود الذين أغدقت عليهم «فكرة أميركا» جميعا نعمة «الهضم» وجيشت كثيرا منهم في حروبها الخيرية، ولم تنس من التنبيه إلى خطرهم على نقاء الدم الانكلوسكسوني [٣٢] .

يومها لم يبق من مهمات «فكرة أميركا» في أرض كنعان الانكليزية إلا تمجيد الله باستعباد من استعصى من هؤلاء الكنعانيين بالغلط على الموت، واستنقاذ تلك المعازل وكنوزها من همجيتهم .

ويومها أيضا، تساءل تيرنر فيلسوف الثغور عن الصورة المزرية التي ستؤول إليها «إسرائيل الله الجديدة Gods New Israel إذا لم يُطهَّروا، هم وهؤلاء المهاجرون الجدد، خَلقا وخُلقا، ويُلقى بهم في مصاهر الحضارة، . ثم بكى على ما آلت إليه «أرض الحرية من ضياع The free lands are gone» . حيث لم يعد غريبا أن يلتقي الجنتلمان في طريقه بهمجي يزين جسده العاري ووجهه بالأصبغة، كما يكرر ذلك في معظم كتبه .

كذلك وصف هنري جيمس الروائي الأرستقراطي في «المشهد الأميركي The American

Scene ما يصيبه من قرف كلما تعثر بوجوه الإيطاليين في طرقات بوسطن (مسقط رأسه)، أوغيرهم من هذا التلوث في شوارع إليس آيلاندِEllis Island (نيويورك) التي تضم اليوم متحفا لهؤلاء المهاجرين (تقول دعايته التي تستقبلك على الباب إن هذا الثغر البحري استقبل ١٢ مليون مهاجر بين (١٨٩٢ و١٩٥٤)، ذلك لأن هذه المخلوقات الزاحفة من تحت جعلت «الزنابير» «يشعرون كما لوأن بيتهم (!) الآمن قد عجّ بالأشباح»[٣٣].

«هذه زبالة الأرض وصلت إلى وينشستر، وحين ستبدأ المذبحة لا بد أن يكون لي نصيب من رقابهم. ولربما أنني لن أكتفي بمجرد الذبح»[٣٤].

ولتدارك هذا الخطر المهدد للنقاء العرقي أرسل الزنابير إلى جزيرتهم البريطانية الأم ٣٦٠٠ وكيل هجرة لاستنهاض الهمم. كانوا ينظمون المحاضرات، ويقيمون المعارض، ويَرشون رؤساء تحرير الصحف ببطاقات سفر مجانية على متن أفخر السفن، ويجولون من مدينة مقدسة إلى أخرى لتشجيع البريطانيين على إنقاذ عترتهم الأميركية من تلوث الدم الطاهر بزبالة الأرض الزاحفة يومها من الصين[٣٥].

كان تدفق الصينيين على ولايات الشاطىء الغربي كابوسا أين منه اليوم كابوس المهاجرين من أميركا اللاتينية. فمن ولاية واشنطن وأورغن شمالا إلى حدود كاليفورنيا مع المكسيك جنوبا، ومن الأعماق القارية لهذه الولايات في أيداهوونيڤادا وأريزونا، كان الزنابير يصرخون بصوت واحد «نريد أسواق الصين ولا نريد فائض سكانها» [٣٦]. مرة يصفون هؤلاء المهاجرين الذين ينافسونهم بمهارتهم وتواضعهم وأجورهم الرخيصة بأنهم «أحط جنس بربري، جاؤوا لينافسوا أبناء العرق الأكثر ذكاء والأرفع ذوقا. . . ويقدموا للرأسمالية نوعا جديدا من العبيد» [٣٧]، ومرة بأنهم «وحوش ذووأذناب طويلة» [٣٨].

حتى لجنة الكونغرس التي حققت في «خطر» التدفق الصيني ثبت لديها أن «أدمغة الصينيين معطوبة»[٣٩].

على مدى أكثر من عقدين، خاض الحزبان الرئيسيان انتخاباتهما في تلك المناطق بشعارات تتنافس في صياغة هذه الديباجة الخالدة: «ما أكره الصينيين وما أشهى أسواقهم». بل إن «حزب العمال»، وهوأول حزب ماركسي في الولايات المتحدة، حصد ما يعادل ثلث الأصوات في انتخابات ١٨٧١ بسبب الشعار الذي ناضل من أجله لأكثر من عشر سنوات: «يجب على

الصينيين أن يرحلوا The Chinese must go». وهوشعار لم يختلف عما نادى به الحزبان الرئيسيان إلا فى أنه لم يتضمن هذه الإضافة: أو«يذوبوا».

أما كيف يذوبون، ومن حُق عليه أن يذوب فقد أجابت The Atlantic Monthly عن ذلك بمقالة ساخرة عنوانها «أن تكون متحضرا أكثر من اللازم» جاء فيها:

«خذ هذا المهاجر الهمجي بيدك. قصّ شعره. ضع بنطلونا في ساقيه. أدخله المدرسة [الأميركية] العامة. أعطه جريدة يومية وانظر كيف سيتطور عقله، وتتغير مشاعره. ولكن حذار من أن تحضره أكثر من اللازم، فذلك سيشل عقله . . .»[٤٠].

***

ظل هذا الغرام بمسخ «الآخر» أو«هضمه» و«عبادة الذات» يعيد ويبدي على مدار السنين، منذ حملات «تمدين» جيرانهم الإيرلنديين البيض في القرن الثاني عشر، وفي كل حروبهم مع الإسبان والفرنسيين ومع الألمان وغيرهم من سكان القارة الأوروبية، كما شمل السود والحمر والصفر والسمر في كل قارات الأرض بلا استثناء، وكان من بعضِ ثماره تطهير قارتين كاملتين هما أستراليا وأميركا الشمالية[٤١] من سكانهما. ولولا أن «حربَ الأفيون» انتكست، برغم كل أبعادها الخيرية، لكان من المنتظر أن تكون «صينلاند» اليوم مثل «آيسلاند» و«غرينلاند» جزءا من خراج «الزنابير»، ولكان على أهلها الصينيين أن يتعروا ويعووا في البراري على أعقاب إخوانهم الأباشي.

يومها، أيضا، وُصِف نضال الصينيين ضد أفيون الانكليز بالوحشية والبربرية ووُصم أبطال هذا النضال وعلى رأسهم لين تسوهسو Lin Tse-hsü بكل ما وصم به الأشرار أعداء الحضارة والحرية . . الخ[٤٢].

***

على مدى أطول تاريخ عرفته الذاكرة الإنسانية من «الحروب الخيرية» السخية التي عمت أربع جهات الأرض، ظل هذا الغرام بمَسخ «الآخر» و«عبادة الذات» يستمد أخلاقه ولغة خطابه من «عقيدة الاختيار» والتفوق العرقي والثقافي.

لغة ودعاوى ملائكية تسلخ جلدها مع كل تطور جديد، كالثورة الصناعية، ومع كل نظرية علمية جديدة، كنظرية التطور، لكن حوافز هذه «الحروب الخيرية» ورسالتها الحضارية ظلت من

«كنعان المجاز إلى كنعان الحقيقة واحدة لا تحول ولا تزول: إنعاش الأسطورة. إنعاش الأسطورة التي نسجها بدومتسيبون حاقدون على كل حضارات عصرهم؛ نسجوها من هاجس نهب هذه الحضارات بأهلها وأرضها وسمائها، وأورثوا الزنابير (الذين يرضعون هذه الأسطورة قبل الحليب) عنجهية «الجلاد المقدس» وأبلغ آداب «مسخ الأخر» و«عبادة الذات» و«تقديس الجريمة».

»الحضارة» في سياق هذه الخطب الحربية –وما أكثر ترددها– لم تستعر معناها من الأسطورة المؤسسة وحسب بل إنها نسجت منها نظامها القيمي والأخلاقي. وربما لهذا لم يجد صاحب ثروة الأمم تناقضا بين أن يكون أستاذا لفلسفة الأخلاق واللاهوت، باحثا في «نظرية العواطف الأخلاقية The Theory of Moral Sentiments»[٤٣]، وبين أن يكون المؤسس النظري لما يعرف بالرأسمالية المتوحشة wild capitalism. فصانعوالأسطورة الذين لم يكونوا يؤمنون بيوم آخر– لا بحساب ولا ثواب ولا عقاب – استعاضوا عن نعيم الجنة بنعيم «نهب جنة الآخر» والتمتع بإبادة من فيها أواستعباده، واستعاضوا عن عذاب الجحيم بعجزهم عن فعل ذلك، ثم لفّقوا لذلك نظاما أخلاقيا يمجد نهب جنة الآخر (الذي هودائما كنعاني مستباح) ويرفعه إلى مرتبة العبادة--عبادةٍ تجذر فيها ذلك العويل الشكاء الندّاب اللوام العضال الذي لازم حياة «الجلاد المقدس» كلما أدركته البطالة.

لكن أعظم فضائل هذا الزواج بين الأسطورة المؤسسة وبين «ثروة الأمم» أنه أدخل الناس في دين الأسطورة أفواجا ومن كل فج عميق، وغسل بنور الإيمان قلوب كثير من أعدائها وضحاياها وجنّدهم لها: من شاء منهم أن يعبد رب الأسطورة فليعبد رب الأسطورة، ومن شاء أن يعبد عجل الذهب فليعبد عجل الذهب. فللربين كليهما عرشان متناظران في بانتيون «فكرة أميركا».

***

في هذا النسيج الترابي لمفهوم الحضارة، اختفت قيم الفقراء والمستضعفين والرومانسيين السذج؛ قيم «الصدق» و«الكذب» و«الحق» و«الباطل» و«الشرف» و«الأمانة» واستعيض عنها بقيم من عجين التراب كالمُلْكية، وتوزيع الثروة، وطرق الإنتاج، ونماذج الاستهلاك. ولطالما كانت قيم «الاكتناز» و«تكديس المال» و«التملك» بمعناه البطِر الأناني من أهم المعايير التي حكم الزنابير من خلالها على نظام «الملكية الجماعية للأرض» لدى الهنود بالوحشية، لاسيما وأنه حال دون السيطرة السهلة على أراضي الهنود، سواء كان ذلك بالرشوة أوكان بالبيع الاختلاسي. إن فكرة

«الاكتناز» و«التكديس» والتملك الفردي الأناني كما يصفها عالم الإنسانيات لويس هنري مورغان Lewis Henry Morgan «هي عاطفة تسموعلى كل العواطف، وهي المهد الذي ولدت فيه الحضارة الإنسانية . . بل إن تطور فكرة التملك يجسد أهم تطور طبيعي في تاريخ العقل» .[٤٤]

معظم دراسات «ثروة الأمم» لنشوء الحضارة الإنسانية وتطورها وضعت «المنفعة» «في أعلى سلم القيم وصنّفت حياة الشعوب وفقا لمنزلتها من سلم التطور الاقتصادي أوحتى الآلي : (مرحلة الإنتاج الصناعي فوق مرحلة الصيد والجمع، والرأسمالي فوق «الشيوعية» أوملكية القبيلة . . . الخ) . وما أكثر ما تحولت هذه التقييمات المستمدة من خارج فلسفة الأخلاق إلى ذرائع أخلاقية لإلقاء الحجارة من أعلى هذا السلم على رأس مَن في أسفله، ومعاذير لتبرير استخدام القوة لتمدين و«رفع مستوى» من تقتضي مصلحة «الحضارة» تمدينه ورفع مستواه .

هذا «التمدين» الذي كان شعاره أيام الاحتلال الأميركي للفيليبين : «مدّنوهم ببندقية civilize them with a crag»[٤٥] يشمل - كما تدل على ذلك كل خطب الحروب- مروحة واسعة من أعمال البر والإحسان تبدأ بالإبادة الجسدية الكاملة ولا تنتهي عند الإبادة الثقافية الشاملة التي سمّاها الرئيس الأميركي وليم مكنلي بالهضم الخيري benevolent assimilation ، ودعا إلى استخدام كل ما يلزم لتحقيقها . لقد برر الزنابير لأنفسهم حق «تمدين» من يشاؤون، بأي سبب يشاؤون، وحيثما يشاؤون، وكيفما يشاؤون، بالبندقية أوبالتقيّة . والدرس في النهاية بليغ ومكتوب بلغة إنكليزية ملكية : »تغيّروا أوزولوا change or begone» .

- II -

ما أن حُشر كنعانيوالعالم الجديد في معازلهم مُخدّرين بسيادة وهمية[٤٦] ومعاهدات أرخص من ورقها حتى أعلن رجل الكونغرس سيدني كلارك Sidney Clarke «أن حال هؤلاء الهنود لا يختلف عن حال امرأة تم تخديرها لاغتصابها»[٤٧] . «الولايات المتحدة [يقول السناتور توماس هنريكس Thomas Hendricks]، شاءت المعاهدات أم أبت، مضطرة إلى أن تزيح هؤلاء الهنود من طريق تقدمها»[٤٨] .

كان جنرالات «ثروة الأمم» يشبّهون هذه االمعازل المتناثرة في رحب كنعان التاريخية والمطوقة بالزنابير من أرضها وسمائها والتي لاتزيد مساحتها مجتمعة على ٣ بالمئة من وطن الهنود التاريخي

مرة بجدار الصين، ومرة بحزام النار الذي يقف في وجه الازدهار. وكانوا يعدون عدة «التمدين»، ويتطلعون إلى نبش كنوز هذه المعازل وإشراع أهلها للرياح الأربع.

لقد ووجه سيدني كلارك بعاصفة من التصفيق حين دعا إلى ترحيل كل من في [ولايته] كانساس من هنود [لتتمكن شركات سكك الحديد من اختراقها] والسماح لممثلي هذه الشركات بطردهم ومطاردة فلولهم[٤٩].

لكن حزام النار الأخطر على ازدهار «ثروة الأمم» كان يتجسد فعلياً باستعصاء الهنود على «التمدين»؛ تمدين هؤلاء الربع مليون الذين نجوا من أصل ما يزيد على ٤٠٠ أمة وشعب كانوا يعيشون في المنطقة التي تسمى اليوم بالولايات المتحدة عند وصول كولومبس إلى (العالم الجديد). وكان جدار الصين الذي ينهض في وجه جنرالات ثروة الأمم هوعمليا «همجية» هؤلاء الهنود المتمثلة في ثقافتهم، وفي نظامهم الاجتماعي الذي لا يعترف بملكية فردية، وفي فلسفتهم الأخلاقية التي تحتقر «النهم» و«الجشع». كل ذلك فرض على فلسفة «تمدين» الهنود أن تضم خصالاً مثل «الأنانية» و«النهم» و«الجشع» إلى معجم الفضائل وأن تزرعها سدى في نفوسهم.

***

عندما أخفقت جهود الجنرالات، استعانت الدولة بالمبشرين وسخَت عليهم. لقد طلبت إليهم في عام ١٨٠٢ أن يكيّفوا لاهوتهم بما يرضي الله و«ثروة الأمم». سألتهم أن يعيشوا بين الهنود وأن يزرعوا في نفوسهم حب الشهوات والتملك والاكتناز والاستهلاك السفيه: «اشتروا أوموتوا buy or die». من ذلك مثلا أن يقنعوهم بأن التخلي عن منسوجاتهم الوطنية وارتداء البنطلون وغيره من الملابس المصنوعة آليا [في مصانع ثروة الأمم] يساعد على إنقاذ أرواحهم![٥٠].

والجيوب – كأحذية O Henry في أنشوريا – قصة ليست جديدة على حروب الخير وحملات التمدين، فلطالما تكررت مثل هذه الملاحظات عن الجيوب وغيرها من مستلزمات «ثروة الأمم» في حملات تمدين معظم همج العالم، وشُحذت لكسر أنظمتهم الاجتماعية أوالثقافية، .

«الصينيون [مثلا] «خلت ملابسهم من الجيوب» [٥١] أيضا، وأُسقطت عليهم بسبب هذه الجيوب التي لم ترها عيون معلمي الحضارة كل عاهات المتخلفين التي تحرمهم من استهلاك السلع الأميركية.

في كتابه عن «الخصال الصينية» أفاض آرثر سميث Arthur Smith (صاحب الملاحظة

السابقة عن الجيوب، وكان يتولى رئاسة بعثة تمدينية في الصين). . أفاض في شرح ما يعود به التبشير من خير على «ثروة الأمم» وذلك من خلال زرع عادات حضارية في نفوس الهمج تسمح باستهلاك المنتجات الحضارية:

«قبول الصينيين للمسيحية سينسف كل علاقات الملكية البدائية بينهم من الجذور كما سيقضي على نظام التكافل العائلي. وستكون هذه أول درجة يرقاها الصينيون على سلم الحضارة. إنها خطوة تطور هائلة، إذ ليس هناك من معوق لتقدم الحضارة بين الصينيين أخبث من نظامهم العائلي الكبير الذي يتعاون فيه أفراد العائلة، ويتكافلون، ويعتمد الواحد منهم على الآخر في إطار الملكية العامة»[٥٢].

بعد حوالي قرن من الجهود التبشيرية التي تألفت لها مئات من جمعيات «أصدقاء الهنود» و«الحوار مع الهنود» و«التفاهم مع الهنود»، ظلت فضائل المدنية تراوح مكانها، لم تغر الكثيرين منهم، فألقى المبشر ميريل غايتس Merill Gates خطبة أمام مؤتمر «جمعية أصدقاء الهنود» التي يرئسها قال فيها

«لا تزال هناك حاجة ماسة لإيقاظ الشهوات والملذات والاحتياجات في هذا الهندي الهمجي. لانقاذ الهندي من همجيته يجب أن نجعله أنانيا ذكي الأنانية، وليس [كما هوالحال الآن] ذكيا أناني الذكاء. علينا أن نوقظ فيه الجشع، والنهم إلى الأشياء. إنه في همجيته المقيتة يحتاج إلى لمسة مباركة من أجنحة ملائكة السخط؛ السخط على مسكنه، والسخط على طعامه . . . ، والسخط على نمط حياته المتقشفة. . . يجب أن ننقذه مما يلتحف به ليلبس البنطلون . . بنطلوناً مع جيوب . . جيوب يضع فيها الدولارات ليشتري بها ما تنتجه المصانع الأميركية ويتمدن. . . كل هذا يحتاج إلى تربية أخلاقية صارمة، تحببه بالتملك وتؤهله للحضارة»[٥٣].

ومع إخفاق التمدين العلماني والتمدين الديني في كسر النظام الاجتماعي الهندي، كان لابد من التمدين بالبنادق. هكذا سن الكونغرس في عام ١٨٨٧ ما يعرف بقانون توزيع الأراضي General Allotment Act (أراضي الهنود طبعا)، وهو كما نصت الحيثيات أول خطوة نحو«الحضارة ونحوالخروج من ولاء القبيلة إلى الولاء للدولة الأميركية». وكان من ثمار هذه الخطوة نحوالحضارة أن سلب المتحضرون من أراضي الهمج الهنود ما يقرب من ١٠٠ مليون فدان في أقل من خمسين عاما بعد صدور القانون[٥٤].

***

كان هناك اعتقاد بأن الهندي سيتبخر طبيعيا عندما «يتمدن»، ولهذا صار تمدينه من متطلبات الحضارة. سيتمدن؛ عندما تنسج سككُ الحديد عنكبوتها في أرضه وتقصفه بالحضارة من كل صوب. لكن الأمل وحده لا يكفي ولا يعول عليه، كما رأى بعض رجال الكونغرس، إذ «لابد من مساعدة الحضارة على إبادة الهنود كما أمر الله يشوع حين دخل أرض كنعان بأن يبيد الكنعانيين الذين لم يكونوا يختلفون عن هنود اليوم، ثم إنه عوقب على تقاعسه عن الانصياع لأمر الله . . . إن على الهنود أن يفسحوا المجال لعنصر من البشر أصلب عودا وأرجح عقلا heavier physically and heavier mentally . لا بد من تدمير كل منجزات الإنسان المتوحش ليتقدم العنصر الأقوى بمنجزاته»[٥٥].

ومن يومها لم يوافق الكونغرس على أية معاهدة لا تتضمن بنداً يسمح لعنكبوت الحضارة ببناء بيته ونصب مصيدته على عنق القمقم ، وهذا ما وضع نظام «الاكتفاء الذاتي» لدى الهنود على فوهة المسدس. لقد تلازم تصدير جنرالات الحرب الأهلية إلى إدارة الشركات مع انتصار «الاتحاد» ومع ارتهان مفهوم الحضارة للآلات العجيبة التي تدهش الهمجي دائما، مما أعطى التفوق التكنولوجي (والتفوق في تكنولوجيا السلاح بشكل خاص) معنى التفوق الحضاري[٥٦]، ومعنى الخير أيضا.

كان الهنود يعرفون أن اختراق «سكك الحديد» لما تبقى من وطنهم التاريخي سيملأ أرضها بالزنابير الذين سيخترعون آلاف الأعذار لطردهم منها بإحسان أوتمدينهم في العالم الآخر. بل إن كثيرا من «العقلاء» «الواقعيين» الهنود والمتمحصين منهم في موازين القوى، هؤلاء الذين لمستهم «أجنحة ملائكة السخط» وحولتهم إلى طواويس، ، بدأوا يتحدثون عن خيرات مشاريع «ثروة الأمم» داخل أراضي الهنود، ويحذرون أهلهم من «الانتحار»:

«لا جدوى من المعارضة الغبية. إن سكك الحديد ستعبر بلادنا وتحسّن وضع أراضينا، ومَن منكم لا يحب سكك الحديد فليرحل بعيدا قدر مستطاعه»[٥٧].

وهذا أيضا ما ردده جنرالات «ثروة االأمم» والمسؤولون الحكوميون أثناء المفاوضات، فكل الخطب والحجج التي ترددت مثلا في مفاوضات «فورت سميث Fort Smith» (١٨٦٤) على مدى ١٢ يوما كانت تؤكد على الطابع الخيري لعبور سكك الحديد أراضي الهنود، لأن «الهدف من بناء هذه السكك هوالحفاظ على حقوق الهنود وأملاكهم، إذ لن يُسمح لأي إنسان أبيض

بالسكن في أراضيهم غير العاملين في الشركة وعمال الصيانة والتطوير وبعض من ستعطيهم الحكومة الأميركية أذونا خاصة».

وكانت أول بوادر الخير حجز الأموال المستحقة للهنود لقاء عبور هذه السكك في أراضيهم. و«لأن المتوحش لا يحسن استخدام المال بمسؤولية» فقد تم ايداع المال في صندوق خاص بواشنطن، ثم استثمر من قبل «مكتب الشؤون الهندية [وكان اسمه يومها The Indian Office] على حماية سكة الحديد وعمالها من الهنود، وتم التبرع بالباقي للشركات[٥٨].

في عام ١٨٦٤، استثمر ما في الصندوق الوطني الشيروكي وصندوق أيتام الشيروكي في سندات الحكومة، ثم تم التبرع بها لدعم شركة سكك حديد Eastern Union Pacific التي كانت يومها قد وسعت نشاطها وبدأت باحتطاب غابات هنود الدولاوير في كنساس، وشاركت في طردهم ومطاردتهم، هم وهنود الشيروكي، إلى الجنوب. أما سندات الحكومة التابعة لأيتام هنود الكريك فتم التبرع بها لشركة Chesapeake and Ohio Canal Company[٥٩].

***

في تلك السنوات القليلة التي سبقت الحرب الأهلية أوتلتها، سلبت «ثروة الأمم» من الهنود معظم ما استعصى على «فكرة أميركا» سلبه من أرض و«سيادة» وحرية وأنفاس معدودة. فقبل أن تجف دماء الحرب كان جنرالاتها الذين حولوا السيادة والحكم الذاتي إلى مزرعة لتربية الطواويس قد أوكلوا إطفاء «حزام النار» لمسؤولي مكتب الشؤون الهندية Bureau of Indian Affairs، بعد أن «دسّوا سيقانهم في بنطلون مع جيوب؛ جيوب يضعون فيها الدولارات ليشتروا بها». بذلك أفلح الطواويس فيما عجز عنه الجنرالات، وتولت «أجنحة ملائكة السخط» إنعاش الأسطورة التي تسكن عظام الزنابير. تلك كانت بداية ما يصطلح عليه في «تعريفات» الزنابير من سيدني إلى غرينلاند بالاستعمار غير المباشر (أوالداخلي):

: «طبقة تترجم ما نريده للملايين التي نحكمها، طبقة من الأشخاص، هنودِ الدم واللون، إنكليزيي الذوق والأفكار والأخلاق والعقلية»[٦٠].

a class who may be interpreters between us and the millions we . . . govern، a class of persons، Indian in blood and colour، BUT English . in taste، in opinions، in morals، and in intellect

كان لابد من مساعدة الحضارة على تمدين «الكنعانيين الذين لم يكونوا يختلفون عن هنود اليوم»[٦٢]. تمدينهم من الداخل، وعلى أيدي «طبقة من الأشخاص، هنود الدم واللون، إنكليزيي الذوق والأفكار والأخلاق والعقلية»، وفي إطار الثقافة الهندية حتى لا يقال إن «التمدين» يفرض عليهم من الخارج.

«حالة حصار» حضارية، وصفها السناتور لوط موريل ببهجة وافتخار:

«أصبحت حضارتنا هي السيد، سيد هذا [الكنعاني] المتوحش، وسيد حكومته... إنه الآن بين حجري الطاحون الأعلى والأسفل، ويجب أن يُسحق. صحيح أن الإنسانية لا تسمح، لكن مصلحة الحضارة تتطلب»[٦٣].

- III -

أواخر حزيران/ يونيو الماضي، أحيت الحركة الهندية The Indian Movement مهرجانا تأبينيا لضحايا هذا التمدين في «المدارس الداخلية Residential Schools التي أنشأها الزنابير لما تبقى من أطفال الهنود المكنعنين. وهناك التقيت لأول مرة بالأنثروبولوجي الهندي جورج واسن صاحب الرسالة الساخرة «رسالة الهندي الأحمر إلى شعب العراق»[٦٤].

مختصر تفسير واسن لرسالته هوأن لكل ما تفعله الولايات المتحدة في هذا البلد أوذاك سابقات داخل ما صار يعرف اليوم بالولايات المتحدة نفسها، وأن تجربة «الاستعمار اللطيف» الذي جسدته بانشاء «مكتب الشؤون الهندية» كررته في كل مكان حاولت تمدينه[٦٥]، فنجحت في مكان وأخفقت في آخر.

وبالطبع لا يمكن فهم المرارة التي يتحدث بها الهنود عن «مكتب الشؤون الهندية» دون معرفة حجم الدمار الذي ألحقه طواويسه بأبناء جلدتهم لحساب المستوطنين الغزاة، ولاسيما لأطفالهم الذين تعرضوا لأرقى أنواع غسيل الدماغ، وما رافق ذلك من تعذيب وسخرة واغتصاب وإرهاب جنسي وسلخ ثقافي وروحي.

لأكثر من قرن كان هذا «المكتب» يلجأ إلى كل وسيلة ممكنة، بما في ذلك العنف والخطف، لاقتلاع أطفال الهنود من أحضان أمهاتهم وثقافاتهم في أصغر سن ممكنة (الرابعة في أغلب

الأحيان) ونقلهم إلى هذه «المدارس»،

أولاً، ليتعلموا كيف ينظرون إلى أنفسهم والعالم بعيون مستعمريهم، وثانيا، ليعملوا بالسخرة في المصانع والمزارع الملحقة بهذه المدارس، في ظل نظام عسكري صارم ، تولى كبره جنرالات «فكرة أميركا» وجنرالات «ثروة الأمم»، قضى بموجب الإحصاءات الرسمية على أكثر من ٥٠ بالمئة من هؤلاء الأطفال. وكان الكونغرس قد أولى «مكتب الشؤون الهندية» سلطة (ونادرا ما يوليه سلطة) فرض عقوبات اقتصادية وجسدية على الآباء الذين يرفضون تسليم أولادهم إلى «وكلاء» هذه المدارس. بذلك كان بوليس «المكتب» -والجيش، في حالات الاستعصاء- يدخل المعتزل الهندي ويحصد كل أطفاله، مع التهديد في بعض الأحيان بالقتل والسلخ kill and scalp (٦٦) ، كما يروي ذلك مع كثيرمن التفاصيل الموجعة داڤيد والس آدامس David Wallace Adams في كتابه «تعليم للإبادة Education for Extinction الحائز على جائزة The Caughey Western History Association book prize في التاريخ، وخلاصة الكتاب أن هذه المدارس كانت الفصل الأخير في تراجيديا حرب الإبادة.

***

لم يتورع طواويس «مكتب الشؤون الهندية» عن إقطاع هذه المدارس لثروة الأمم التي أقطعتها بدورها لإرساليات التبشير، واستأجرت لذلك خريجي السجون وأصحاب السوابق والساديين ومغتصبي الأطفال والمتقاعدين العسكريين والأمنيين لتمدين أطفال الهنود والإشراف على هذه المدارس وإدارتها، لهذا لم تخل مدرسة واحدة، وبنسب مختلفة من الاغتصاب الجنسي. حتى إن بعض خطباء المهرجان التأبيني، أشاروا إلى امتناع كثير من الأمهات عن الحمل خوفا من جلادي المدارس الداخلية ونظام الترانسفير الذي فرضه المكتب وشركات «التمدين» المتعاقدة معه. ويروي المؤرخ الهندي جورج تينكر George E. Tinker بكثير من الحزن قصة أخ له بالتبني (واسمه دوني Donnie) الذي انتحر وهوفي الثانية والخمسين. لقد اختطفه بوليس الطواويس من ذراعي أمه في مَعزل Pine Ridge عندما كان في الخامسة. لم ينفع بكاء الأم ولا ضراعة الأب، فقد وضعوا في يديه القيد أمام عيونهما، وساقوه إلى سيارة تغص بالأطفال، حيث ربطوه بالسلسلة الطويلة التي تصفّدهم جميعا، ثم شحنوهم إلى مدرسة St. Francis التي أولى «المكتب» إدارتها إلى إرسالية تبشيرية. ومنذ تلك اللحظة كُتبت قصة انتحاره، فقد بدأ منهاجُ تمدينه في

الأيام الأولى لدخوله المدرسة بافتراسه جنسيا من قبل ناظر يصفه بأنه أبيض عملاق، كان ينسلّ إلى مهجعه في الليل ويغتصبه هوورفيق غرفته «كونراد» الذي كان بعمره. كان الناظر يعرّيهما معا، ويتناوب على تمدينهما حتى ينتهي[٦٧]، إضافة إلى غزوات افتراس مفاجئة يشنّها عليهما بعض العاملين، أووجوه لم يرياها من قبل. أما كونراد فسرعان ما وضع حداً لعذابه وانتحر قبل أن يبلغ الخامسة عشرة[٦٨].

قصة الاغتصاب الجنسي في هذه المدارس تكاد تكون بعمر فكرة تمدين أطفال الهنود.

هناك تقرير يعود إلى عام ١٨٩٠(٦٩) يتحدث عن راهبات كن يُدخلن أطفال الهمجية معهن إلى الحمّام (. . الخ). ويروي، نقلا عن شهادات التلاميذ، كيف كنّ يتلوين أمام هؤلاء الأطفال ويتأوهن وهن يعلمنهم دروس المدنية.

أما الدراسات الإحصائية لهذه الظاهرة فحديثة نسبيا. فالتقرير الذي أعدته وزارة الصحة عام ١٩٩٣ يقول بأن نسبة اغتصاب الأطفال في بعض هذه المدارس، ما بين أعوام ١٩٥٠ و١٩٨٠، كانت كبيرة إلى حد أنه كان عاما طاما لم يستثن أحدا منهم أومنهن[٧٠]. وأثناء محاكمة ناظر في مدرسة Alberni، اعترف بأنه «مدّن» كل الأطفال الذين كانوا تحت نظارته، وذلك منذ اللحظة التي تعيّن فيها حتى لحظة تقاعده، وبشكل يومي تقريبا[٧١]. إن قصة دوني وكونراد هي في النهاية قصة كل الحروب الخيرية الأميركية مع الهمج والبرابرة والوحوش الذين يكرهون «طريقة الحياة الأميركية». كل هندي في أميركا اليوم هوإما «دوني» أوإنسان آخر يبكيه. إن حياة هؤلاء الهنود اليوم هي مكابدة يومية مع ما جنته عليهم مدارس المدنية على مدى خمسة أجيال من افتراس لمتلكاتهم وتاريخهم وثقافاتهم وأديانهم وهوياتهم لا يقل عنجهية عن افتراس أعراضهم.

هذا «التمدين» الذي وظف المدرسة لتدور فيها آخر فصول الإبادة لأكثر من ٤٠٠ أمة وشعب كانوا يعيشون في المنطقة التي تسمى اليوم بالولايات المتحدة ويسمون زنبوريا بالكنعانيين، هومن عبقرية ريتشارد هنري برات Richard Henry Pratt أحد جنرالات «ثروة الأمم» الذي اختارته الإدارة الأميركية لإنشاء هذه المدارس ووضع نظامها تحت مظلة «مكتب الشؤون الهندية». والهدف، كما أعلنه برات بنفسه هو«قتل هندية الهنود»(٧٢). أما طاووس «المكتب» وليم جونس فقد فسر مسألة «تشريح الخَلق وتنقيح الخُلق» بلغة أكثر وضوحا: «إن الهدف من إنشاء هذه المدارس هو«إبادة الهندي لخلقه إنسانا آخر»[٧٣].

to exterminate the Indian، but develop a man

النظير الكندي Duncan Cambell Scott قال: «إن الهدف هوالقضاء نهائيا على القضية الهندية. مهمتنا [التمدين] ستستمر حتى لا يبقى هندي واحد يفكر فيما يسمى قضية هندية»[٧٤].

***

لكن أهداف مدارس التمدين، في اعتقادي، لا تتجسد إلا في شخصية هذا العسكري المتقاعد Pratt الذي اختير بعناية لإنشائها ووضع برامجها تحت مظلة الطواويس. فكل مؤهلات الرجل أنه كان مدير سجن عسكري في فورت ماريون Fort Marion، ولم يتول أية مهمة تربوية في حياته. ومن مؤهلاته أيضا أنه الابن النجيب للزوجين السعيدين «فكرة أميركا» و«ثروة الأمم»، فهوالذي أسس نظاما يعرف بصناعة السجون، سخّر فيه السجناء على العمل لكي يسددوا نفقات سجنهم وبفائدة مرتفعة[٧٥]، وهو شكل متطور من أشكال العبودية الذي أهدته «ثروة الأمم» لفكرة أميركا وطبّقه برات على مدارس الهنود، فحكم على كل طفل همجي في مدارس المدنية أن يعمل بالسخرة لمدة تزيد على عشر سنوات، إذا لم يفن تمدنا قبل ذلك.

***

بعد أن يتلقى الطفل أربعة دروس صباحية في «المواطنة» و«الحضارة» و«اللغة» و«الدين»، يتناول وجبة غداء دسمة من الخبز والحساء والبطاطا المسلوقة. بعدها يُساق إلى السخرة:

الفتى يعمل في المزرعة الملحقة بالمدرسة أوالتي تعهدتها إدارة المدرسة، أويعمل في مصانع تجارية، أومناجم فحم، أوورشات بناء. وعند الحاجة قد يحفر قبرا لرفيقه.

أما البنات فيسقن إلى الخدمة والغسيل والتنظيف ومشاغل الخياطة.

خلال فصل دراسي واحد في مدرسة Fort Stevenson (من المصادفة أن كل هذه المدارس تحمل أسماء حصون عسكرية أوقديسين)، سُخِّر ٣٨ تلميذا (أعمارهم بي الثامنة والرابعة عشرة) لقطع وتنجير ٣٠٠ سارية خشبية، ولتسوير عشرين فدانا من المراعي، ولقطع وتكسير ٢٠٠ كورد من الحطب (٢٥٦ ألف قدم مكعب)، ولتخزين ١٥٠ طنا من الثلج، ولاستخراج ١٥٠ طنا من الفحم الحجري ignite coal[٧٦].

ما أنتجه تلاميذ مدرسة شيلوكو Chilocco (أوكلاهوما) في مخبز المدرسة كان من معجزات

«ثروة الأمم». «١٢ تلميذا في هذا المخبز، كانوا ينتجون أسبوعيا ألفي رغيف خبز، وألفي كعكة حلوة buns، و٩٠٠ كعكة بقرفة، و٢٢٠ فطيرة، و٩٠٠ قطعة من كعك الزنجبيل (الجنجر)، و١٨٠٠ قطعة من خبز الذرة.

أما في المغاسل فكانت تلميذات المدنية يغسلن في الفصل ٥٧٤ ألف منشفة، و٩٨ ألف شرشف، و٣٥ ألف قميص، وعشرات آلاف قمصان النوم night gowns والوسائد والسراويل الطويلة (٧٧).

وفي مدرسة Genona Indian School حيث المنطقة زراعية وبحاجة إلى أقنان، كان تلاميذ المدرسة يتولون كل الأعمال الزراعية في مزرعة مساحتها ٣٠٠ فدان، وفي Haskell ٦٠٠ فدان[٧٨].

***

برغم كل هذا الإنتاج الذي در على إدارة المدارس أربعة أضعاف نفقاتها السنوية، ظل طعام هذه المدارس على مدى أكثر من مئة عام يقتصر على (أ) الخبز، (ب) الحساء، (ج) البطاطا المسلوقة. كل الدراسات التي أجريت لاحقا بيّنت أن معدل وزن التلميذ في مدرسة التمدين أقل بـ ٣٥ بالمئة من الوزن الطبيعي، وأن ميزانية طعامه تعادل ٢١ بالمئة من ميزانية مدارس الزنابير. ثم تبين لاحقا أن ٩١ بالمئة من هؤلاء الأطفال عانوا من سوء التغذية diety deficiency التي لم يتوفر فيها الحد الأدنى من الاحتياطات الصحية.[٧٩]

وملف التغذية، يضم أمثلة لا نهائية عن خيرات التمدين. منها مثلا، أن طفلة في التاسعة وجدت دودة في حسائها، فأمرتها الراهبة بأن تبلعها(٨٠) وتشكر الرب على نعمائه، وطفلة ثانية استفرغت في صحنها فأمرها الناظر بأكل ما استفرغته[٨١].

***

كان التعذيب النفسي والجسدي، كما يصفه تقرير رسمي صادر عن الكونغرس «مستفحلا» في هذه المدارس[٨٢]. وكان يشمل التعرية، وتقنيع الرأس، والتحرش الجنسي، واستخدام الكلاب، ومعظم تلك الفظاعات «الغريبة عن الأمة الأميركية، والتي يرتكبها، من حملة تمدين إلى أخرى، أفراد «شاذون» دون علم رؤسائهم».

وكان أساتذة التمدين يتلذذون بتعذيب أطفال الهمج بسبب أودون سبب، كعلك العلكة،

والتلكؤ في العمل، ومراسلة الأهل. لكن أخطر الجرائم كانت تتمثل في الحديث باللغة الأم.

في مدرسة Alberni Indian School ضُبطت مجموعة من التلاميذ وهم يتحدثون فيما بينهم بلغتهم الأم فعوقبوا بغرس إبر خياطة طويلة في ألسنتهم لمدة نهار كامل، وعوقب آخرون في مدارس أخرى بتسميط اللسان بنار الولاعات، أوباستخدامه منفضة سجائر(٨٣). كل ذلك برعاية طواويس «مكتب الشؤون الهندية».

***

لحظة فك الأغلال من يد الطفل، تبدأ «إبادة الهندي لإعادة خلقه من جديد»، فتحرق ثيابه وخصوصياته أمام عينيه، وسط مشاعر القرف والاشمئزاز، وكلمات ألطفها «الهندي القذر dirty Indian. ثم يحلقون شعره، ويعلمونه أن الشعر الطويل الذي يعتز به الهنود هومن رموز الهمجية (فلا يتناسب مع البنطلون ولا مع الجيوب).

الخطوة المباشرة بعد ذلك هي تغيير اسم الطفل من اسم هندي ثقيل على السمع واللسان إلى إسم إنكليزي موسيقي طنان، يُختار عادة من أسماء ألمع نجوم الفن والأدب والعلم والسياسة(٨٤) ليوهموه (أويوهموها) بأنه لم يبق بينه وبين أن يصبح واحدا من هؤلاء العظماء سوى أن «يُهضَم» ويحتقر هنديته.

ويبين مفوض هندي Thomas Morgan طبيعة ما يجب أن يتعلمه الطفل ليصبح متمدنا، فيقول:

«لابد من غرس محبة الدولة الأميركية في عقله وقلبه. عليه أن ينظر إلى الولايات المتحدة كوطن صديق ضحى من أجله، وأعطاه الكثير. عليه أن يتخذ مثله الأعلى من أبطال التاريخ الأميركي (الذين أبادوا شعبه)، وأن يعتز بما أنجزوه. عليه أن ينسى ما يقوله أهله عن البيض (الزنابير) ويعرف أن ما حصل كان لمصلحته» (٨٥).

أكثر من عشر سنوات يقضيها الطفل في المدرسة التي تضرب ستارا حديديا بينه وبين أهله وثقافته وتاريخه وأخلاقه. ومع هذه التعرية الكاملة من هنديته، يبدأ تدميرٌ أعظم وأخطر. أوله حرمان هذا الطفل الهندي كليا من الحديث بلغة أهله، لغته الأم، أومعرفة أي شيء عن طقوسه الروحية (التي أصبحت اليوم لسخرية القدر a la mode، يتباهى بممارستها جيل ما يعرف بالعصر الجديد New Age. وكان «مكتب الشؤون الهندية» قد أصدر قرارا يقول فيه: «يجب

إجبار التلاميذ على أن يتحدثوا فيما بينهم بالانكليزية، ويجب توبيخهم ومعاقبتهم إذا لم يتقيدوا بذلك». [٨٦].

مع تقدم الدراسة يتعلم الطفل ما يسمى بدروس المواطنة lessons of citizenship ودروس الحضارة lessons of civilization و«الأخلاق» و«الدين» و«اللغة»، وهي مفاهيم يعرف السيد الزنبور أنها لا تتماسك وتقف على قدميها إلا بعد تشويه وتدمير مواطنة وأخلاق وحضارة ودين ولغة هؤلاء الأطفال، ويعرف أنها لن تنجح في ذلك إلا بعد تدريب هؤلاء الأطفال على استعمار أنفسهم. فلكي تستكمل «فكرة أميركا» أهدافها النبيلة، فإن على ضحاياها من كنعان المجاز إلى كنعان الحقيقة أن يؤمنوا عن قناعة بشرعية وأخلاقية ما جرى لهم، وبأن إبادتهم كانت لصالحهم ولصالح الحضارة الإنسانية. لم يعد يكفيهم أن يكونوا عبيدا، بل إن عليهم أن يرضوا بهذه العبودية ويحبوها ويدافعوا عنها بالفم الملآن.

الهوامش

١. Russell D. Buhite، Calls to Arms، (Scholarly Resource Inc، Wilmington، Delaware، ٢٠٠٣).

٢- «القديسون» لقب فخري اتخذه المستعمرون الإنكليز الأوائل للعالم الجديد

٣- عنوان كتاب لتوماس مورتون Thomas Morton، نشره عام ١٦٣٧. وكنعان» هو أحد الأسماء التي أطلقها المستعمرون الإنكليز على أميركا.

٤. Russell D. Buhite، Calls to Arms، p. xv.

٥- من الاعتراضات الكثيرة على لغة الرئيس الحالي أنه أدخل إلى قاموس اللغة الرسمية كلمات وعبارات مثل «goddamned bitch وmotherfucking traitors وbullshit و assholes» وكثيرا غيرها. وقد اعتاد على رفع إصبعه الوسطى flashes the bird في وجه الصحافيين حين يحرجونه بالأسئلة، وله صور كثيرة وهو يفعل ذلك. أنظر:
Doug Thompson، Bush's Obscene Tirades Rattle White House Aides، Capitol Hill Blue، Aug. ٢٥، ٢٠٠٥

The Rhetorical Presidency من أفضل الدراسات عن تطور لغة الخطابة لدى الرؤساء الأميركيين من عهد الآباء المؤسسين إلى أيام ريغان كتاب منشورات برنستون، ١٩٨٧) حيث لا يستطيع القارىء معه إلا أن ينحني إجلالا) Jeffry K. Tulis لجفري توليس. لعبقرية نفاق اللغة الإنكليزية الرسمية

٦- معظم الطلاب الفقراء الحالمين بمستقبل أفضل في وطن لا يقل معدل القسط الجامعي فيه عن ٢٥ ألف دولار في السنة يصطادهم تجار الموت، فيغرونهم بدفع تكاليف دراستهم لقاء استدعائهم إلى أول حرب خيرية. ولطالما قتل كثير من هؤلاء أو أعطبوا قبل أن يتخرجوا. لهذا لم أتفاجأ مع بداية العام الدراسي الجديد أن أجد على لوحات الإعلانات في الجامعة، بل على جدران أبهائها وأروقتها الطويلة أوراق نعي، أو أوراق احتجاج، أو ملصقات يقول أحدها على لسان طالب جندي يحمل بندقية ويقفز خائفا في حقل ألغام، بعد أن عيشتم وجوده في ساحة الحرب بأبشع الشتائم: «لم ألتحق [بالعسكرية] إلا من أجل الدراسة. what the F... am I doing here. I am only joined up for college money.

وما عرضه مايكل مور في فيلمه الوثائقي «فهرنهايت ٩ / ١١» عن صيد الأطفال الفقراء لتجنيدهم في حروب «ثروة الأمم» ليس إلا قطرة من بحر . فقد كشفت حركة **MoveOn** المعادية للحرب على موقعها **MoveOn . org** كيف أن البنتاغون ينتهك القوانين الأميركية لهذا الهدف، وكيف أوكل إلى شركات خاصة (يعلم الله من يملكها) مهمة التجسس على سجلات المدارس الثانوية وكشف المعلومات الخاصة جدا عن ٣٠ مليون مراهق (مثل رقم الضمان الاجتماعي، والانتماء العرقي، والحالة الاجتماعية/ الدخل، والسلوك في المدرسة، والمراسلات عبر البريد الالكتروني . . الخ) لدراستها وترشيح المناسب منها للصيد . وهذا ما دعا عددا من الأمهات إلى تشكيل جمعيات خاصة تنادي بحماية أطفالهن من تجار الموت، لعل أهمها جمعية «**Leave my Child Alone** حلّوا عن ولدي» .

٧- «فكرة أميركا» هي الترجمة الأنكلوسكسونية لأسطورة إسرائيل التاريخية، وهي تقوم على ثلاثة عناصر : (١) احتلال أرض الغير، و(٢) استبدال سكانها بسكان غرباء، أواستعباد من يعصى منهم على الموت، و(٣) استبدال ثقافتها وتاريخها بثقافة المحتلين الغرباء وتاريخهم . هذه الفكرة هي التي أرست الثوابت التاريخية الخمسة التي رافقت كل تاريخ أميركا : (١) المعنى الإسرائيلي لأميركا، و(٢) عقيدة الاختيار الإلهي والتفوق العرقي والثقافي، و(٣) الدور الخلاصي للعالم، و(٤) قدرية التوسع اللانهائي، و(٥) حق التضحية بالأخر .

٨- **WASPs** هي الأحرف الانكليزية الأولى للـ **White Anglo-Saxon Protestants** البيض الأنكلو-سكسون البروتستانت، أوما يعرف بالزنابير .

٩- «**I use them for ass wipe** . . . » عبارة لريتشارد وايتسل **Ritchard Whitesell** مدير مكتب الشؤون الهندية قالها للهنود الذين جاؤوا يذكرونه بالمعاهدات . راجع القصة ومرجعها في «تلمود العم سام»، لمنير العكش، منشورات رياض الريس ٢٠٠٤ ، ص ٦٢-٣ .

١٠- جاء وصف الصينيين بذلك على لسان أحد أعضاء مجلس الشيوخ الأميركي . راجع القصة كاملة في :
Gavan Daws، Shoal of Time : A History of Hawaiian Islands (Honolulu University of Hawaii Press، ١٩٦٨)، p . ٢٩٠ .

١١- **Mark Twain، Following the Equator : A Journey Around the World (New York، Dover ١٩٨٩)، p . ١٨٦ .**

١٢- معظم من يُسمّون بخبراء **experts** العالم العربي في وسائل الإعلام ووزارة الخارجية ووزارة الدفاع لا يعرفون العربية ولا قرأوا كتابا عربيا واحدا، ولا زاروا بلدا عربيا [إلا في «مهمات» سريعة] أوتحدثوا مباشرة مع أبنائه . يكفي الواحد منهم أن يدرس سنة أوسنتين في هذه اللغة العامية أوتلك حتى يفلسف لك العالم العربي الاسلامي ماضيا وحاضرا ومستقبلا، ويسمي خبيرا، ويؤلف كتبا عن «العقلية العربية» و«العقلية» الإسلامية . وبعض من هؤلاء الخبراء نساء لم يفلح زواجهن من العرب فتحولن إلى خبيرات .

١٣ . **Charles D . Warner، Mummies and Moslems (Hartford، Conn . : American، ١٨٧٦)، . ١١٩ .**

١٤ . **David Spurr، The Rhetoric of Empire : Colonial Discourse in Journalism، Travel Writing، and Imperial Administration (Post-Contemporary Interventions)، (Durham، N . C . : Duke University Press، ١٩٩٣) . p . ٣١ .**

«وعبارة «جئنا لنحرركم لا لنستعمركم . . ولا طمع لنا في أرضكم» التي سمعها من القواد الإنكليز أهل الصين والهند وأفريقيا، سمعناها أيضا من كل الأصدقاء، من «الصديق» الجنرال اللنبي في القدس (١٩١٧) و«الصديق» الجنرال **F . S . Maude** في العراق (١٩١٧) إلى «الصديقين» بلير وبوش

١٤أ - الرئيس تيودور روزفلت عَوْلَم جغرافية المجاهل التي كانت في مرحلة الزحف نحوالغرب قصرا على بلاد الهنود فضمّ إليها معظم قارات العالم وقال إنها «كواكب من قبل التاريخ» مستعيرا ذلك التعبير من معاصره جوزيف كونراد **Joseph Conrad** . راجع :
Archibald Roosevelt ed . ، Theodore Roosevelt on Race، Riots، Reds، Crime (West Sayville، New York، ١٩٦٨)، p . ١١٩ .

ولطالما سخر روزفلت من فكرة «أن تبقى قارات الأرض مرتعا لقبائل مبعثرة ومتوحشة تكاد لا تختلف حياتها توحشا وحقارة ولا معنى عن حياة الوحوش التي ترتع معها» .
Theodore Roosevelt، The Winning of the West (Licoln University of Nebraska Press، ١٩٩٥) vol III، p . ٤٤ .

١٤ ب- انظر الحاشية رقم ٧ .

١٥ - جاء ذلك في فيلم وثائقي عن «الإعلام الأميركي والقضية الفلسطينية» أعده مخرجان أميركيان يهوديان، أتمنى عرضه في كل العالم الناطق بالإنكليزية . الفيلم هو :

Peace، Propaganda and the Promised Land: U.S. Media and the Israeli-Palestinian Conflict (The Media Education Foundation).

ويمكن الحصول على الفيلم من www.mediaed.org

١٦. Owen Wister، The Virginian (New York: Viking Penguin، ١٩٨٨) p. ٦٩

وفي أدب وستر Wister صانع أسطورة الكاوبوي البطولية، أعاجيب من عبقرية الأنكلوسكسون في مسخ الكائنات. إنه هوونظيره Fenimore Cooper صنعا معظم أساطير الغرب الأميركي وبطولات ثغوره التي كانت تزحف فوق أرواح الهنود. وليس من المؤكد ما إذا كان وستر قد أفاد من عبقرية تيودور روزفلت في The Winning of the West لكنه بالتأكيد يلتقي معه في كثير من التفاصيل.

١٧ - يحضر الله بين الحين والآخر إلى البيت الأبيض ليسلي وحدته بالحديث مع هذا الرئيس الأميركي أوذاك، وكثيرا ما يطلب إلى الرؤساء قبل أن يودّعهم هداية هذا الشعب الوثني أوتمدين ذلك الشعب الهمجي. وقصة حديث وليم مكنلي أوجورج بوش مع الله في البيت الأبيض ليست استثنائية، راجع

William Drinnon، Facing West . . . (University of Oklahoma Press (Norman and London، ١٩٩٧)، p. ٢٧٩.

ولمن يرغب في معرفة المزيد عن زوار هذا البيت الذين ينسلون ليلا إلى مخادع الرؤساء، أوعن الأطفال غير الشرعيين الذين «جُنيَ عليهم»، أنصح بقراءة

Shelly Ross، Fall from Grace: Sex، Scandal، and Corruption in American Politics from ١٧٠٢ to the Present(New York، Ballantine Books)

١٨. Josiah Strong، Our Country: Its Possible Future and Its Present Crisis (New York: Baker and Taylor، ١٨٦٦)، pp. ١٤، ١٥.

أثناء التحضير لغزو كوريا، أضفى بعض الجنرالات على هذا التناغم بين «القدر المتجلي» وبين «ثروة الأمم» بعدا أخلاقيا يقطر شفقة على الطبقات الدنيا من أقنان المزارع وعبيد المصانع الذين سيقطفون ثمار فتح ما كان يعرف بمملكة هرميت Hermit Kingdom. من ذلك ما قاله الجنرال Robert Shufeldt: «إن ثلث إنتاجنا الصناعي والزراعي يفيض عن حاجتنا، وعلينا إما أن نمدّن مملكة هرميت ونصدّر هذا الفائض من الإنتاج إلى أسواقها، أوإننا سنضطر إلى ترحيل البشر الذين صنعوا هذا الفائض».

Chales Camble، Jr.، The Transformation of American Foreign Relations، ١٨٦٥-١٩٠٠ (New York، Harper And Row، ١٩٧٦). p. ١٠٩.

١٩- في كتاب له بعنوان The Law of Civilization and Decay، وقد كان لنظريته تأثير كبير، خاصة وأنه كان حفيدا للرئيس الأميركي السادس شارلز كوينس آدامس.

٢٠. Brook Adams، America's Economic Supremacy (New York، Macmillan، ١٩٠٠)، p. ٧٢، ١٣١، ١٣٣.

٢١- وفي هذا يقول مارك توين: إن البيض دائما يريدون الخير عندما ينتشلون سمكا بشريا من المحيط ويحاولون تنشيفه وتدفئته وإسعاده وإراحته في قن الدجاج!

Following the Equator، p. ٢٦٧.

٢٢- رقائق من لحم الخنزير مقتطعة من مؤخرته وجنباته، تُملح وتُجفف، وتعتبر أشهى ما في مائدة الفطور الحضاري.

٢٣- الشاهد من الصفحة الأولى في المجلد الأول من The Winning of the West السابق ذكره. وكا ن روزفلت حيثما حل من هذه القارة الأفريقية التي أصر المستعمرون على وصفها بالسوداء يحلم باليوم الذي سيتمدن فيه هذا المكان ويسكنه الأنكلوسكسون. راجع

Theodore Roosevelt، African Game Trails: An Account of the African Wandering of an American Hunter-Naturalist (New York: Scribner، ١٩١٠). p. ٢.

٢٤- المصدر السابق، ص x، ٤٠٥. وكان روزفلت يدعوإلى «إعطاء فلسطين كاملة لليهود» وإقامة دولة فلسطينية عاصمته القدس».

Letters of Theodore Roosevelt (Harvard University Press، Cambridge، ١٩٥١-٥٤)، ٨، pp. ١٣٥٩، ١٣٧٢.

٢٥. Victorian Anthropology (New York: Free Press، ١٩٨٧، George Stocking، Jr.)، p. ١٨٥.

٢٦. John Fiske، زThe Progress from Brute to Man، سOct، North Ameerican Review. ١٨٧٣، p. ٢٥٥.

٢٧- من خطبة للسناتور ألبرت بڤردج Albert Beveredge، عن منير العكش، تلمود العم سام، ، ص ١٦٩ ، الحاشية رقم ٢ .

٢٨. Charles Darwin، The Descent of Man and Selection in relating to Sex، (Princeton، N.J. : Princeton University Press، ١٩٨١)، p. ١٦٨.

٢٩- أفضل مرجعين عن حياة غالتون وأعماله في هندسة الذكاء العنصري وفي نذر حياته لصقل الجوهرة الأنكلوسكسونية :

(A) D. W. Forrest، Francis Galton : the Life and Work of a Victorian Genius (London، ١٩٧٤).

(B) F. Galton، Memories of my Life (London، ١٩٠٨).

٣٠. Congressional Record، ٦٨th Cong، . vol، . 1st sess. ٦٥، pt. ٦، ١٩٢٤)p. ٥٦٤٨.

٣١. Alexander Saxton، The Indispensable Enemy: Labor and the Anti-Chinese Movement in California (Berkeley: University of California Press، ١٩٩٥)، p. ٢٤٧.

٣٢-أعجب ما في هذه الحملة العربية/ الإسلامية الشعواء على أفكار «النقاء العرقي» أو«الهضم» لدى صاموئيل هنتنجتون أنها أعطت «فكرة أميركا» نفسها هامشا من البراءة، بل حوّلت الأنظار عن أهدافها حين اقتلعت أفكار هنتنجتون من سياقها واقتطعتها من جذورها . فهذه الأفكار العنصرية المستمدة أصلا من «عقيدة الاختيار» ليست من اختراع هذا الكاتب ولا يتفرد وحده اليوم برفع رايتها أوالدعوة إليها . هذه الفكرة أبحرت إلى أرض كنعان في سفن الغزوالأولى، ورافقت مسيرة الامبراطورية من جيمستاون إلى مانيلا، ومن مانيلا إلى ڤيتنام فإلى جيكور. وما أكثر السجلات الموثقة لها في كل محطة من محطات زحفها القدري حول كوكب الأرض منذ «العهد» الأول الذي قطعه «الحجاج» مع الله سنة ١٦٢٠ على متن سفينة ماي فلور حتى اليوم . هذه الفكرة محور مركزي في كتابات المستعمرين الأوائل مثلما هي اليوم محور مركزي في أدبيات الميليشيات العرقية وأبواق النزعة الإمبراطورية . هناك الكثير ممن لا يزالون في العالم الزنبوري من سيدني إلى واشنطن يعيشون في عصر الماموث والديناصورات ويعتقدون مثلا بأن العرش الإنكليزي هو عرش داود، وأن االزنابير هم شعب الله حقا، وأن الله نفسه كما كان يرى أوليڤر كروموبل رجل إنكليزي . أعاجيب «ما بعد - حداثية» كثيرة من هذا الجنون والآفات النرجسية وعبادة الذات في الاعتقادات الشعبية كلها تؤكد بمستويات مختلفة من لغة التعبير والمناهج والتبريرات بأن تصميم الله لمستقبل الإنسانية يعتمد كليا على الأنكلوسكسون، ومن الواضح أن هؤلاء- وهنتنجتون نقطة في خضمّهم- لا يكتفون بمصادرة أرض كنعان بمن فيها لأنفسهم بل يريدون أن يصادروا العالم بكل ما يعني ذلك من مصادرة حق تقرير مصير الحياة والموت والرزق والحرية . . لكل من عداهم من عباد الله . ما يهمني هنا ليس الاعتقاد نفسه بل ما ترتب عليه اجتماعيا وسياسيا، وما جرّ على الإنسانية من ويلات . فا لخطر ليس في الاعتقاد المجرد بل في تعاون جنرالات «مكدونالد» و«مكدونالد دوغلاس» على تحويل هذه الخرافات إلى معجزات . إن هاجس التلوث العرقي الذي يملأ مخيلة هنتنغتون بالكوابيس كان أيضا يملأ مخيلة الذين كانوا يتلذذون بحرق الهنود أحياء، ويصفون إحراق القرى وأهلها بأنه حفلات شواء (باربكيو)، وهوأيضا ما كان يعتقده زنابير أستراليا والمتأفرقون Afrikaners والبور Boers البيض مستعمرو جنوب أفريقيا، بل هوالذي حسم في الكونغرس مسألة عدم ضم الفيليبين بعد احتلالها إلى الولايات المتحدة خوفا من التلوث العرقي .

هذا الاهتمام الساخن بكتابات هنتنجتون وبدجل «حوار الحضارات» الذي تتولى كبره ورفع درجات حرارته بعض مستعمرات الخليج بالاتفاق مع دوائر وزارة الخارجية الأميركية، وتستجر إليه كثيرا من أصحاب الحماسات البلهاء للأخذ والعطاء مع «قلوب وعقول أميركية منفتحة» مثل مارتن إنديك وبيل كلينتون مثير للريبة فعلا، لا لأن هذه الحوارات تحيل عن عمد وعن سابق تصميم كل هذه القيامة إلى سوء تفاهم أشبه بالخلاف على نواقض الوضوء، ولا لأن هناك تعمدا في إخفاء خنجر القاتل في سيمفونيات بيتهوفن وإضفاء صفة الحضارة الغربية على كل جرائم مافيا «ثروة الأمم»، بل أيضا لأنه ليس لهذا الكاتب البروباغندي الذي يضر الولايات المتحدة أكثر مما ينفعها وزن علمي أوأكاديمي في أميركا . إنه برغم حظوته الكبيرة لدى المؤسسة الحاكمة وأصحاب الأحلام الإمبراطورية التي مولت كتبه ونشاطاته (مؤسسة سميث ريتشاردسون Smith Richardson Foundation المرتبطة بتشيني ورمسفيلد وزبغنيوبريزنسكي مثلا هي التي مولت كتابه الأخيرWho Are We؟) يُعتبر كاتبا هامشيا تافها في الوسط الثقافي الأميركي . وعلينا أن نتذكر أن كل طلبات انتمائه إلى الأكاديمية الوطنية للعلوم في الثمانينات رفضت لهذه الأسباب، وكان الرفض دائما يقترن بوصفه pseudoscientist كاتبا مشعوذا . يبقى أخيرا أن مقولة النقاء العرقي الأنكلوسكسوني وهي المقولة التي ينسج حولها هووالزنابير كل دعاويهم مقولة فاسدة علميا . فالأنغلوسكسونية كذبة بيولوجية لا أساس لها في الدراسات العرقية الجادة، وكل الذين حاولوا الترويج لها كانوا يشيرون إلى ذلك الخليط المهجن من السلت والفايكنغز والجرمان الذين كانوا يسكنون الجزيرة البريطانية، ثم عمموه في أميركا على القوقاز البيض من الناطقين بالإنكليزية .

٣٣- أنظر ص ٤٢٥ و٤٢٦ ، طبعة Library of America، عام ١٩٩٣ . .

٣٤- هذا ما قاله النحات فريدريك رمنغتون Frederick Remington سليل أحد قديسي الموجة الاستعمارية الأولى ليوتانت جون رمنغتون . ويعتبر من رموز الوطنية الأميركية فمنحوتاته مجدت أسطورة الكاوبوي وجسدت بطولات الزحف نحوالغرب، وتباع نماذج مصنّعة منها للمغفلين في المتاحف الوطنية ودكاكين السياحة . والشاهد نقلا عن :

Frederick Pike، The United States and Latin America: Myths and Stereotypes of Civilization and Nature (Austin University of Texas Press، ١٩٩٢)، p. ١٧٩ .

٣٥. Philip Tayler، The Distant Magnet: European Emigration to the U.S.A. (New York: Harper and Row، ١٩٧١)، pp. ٧٢-٧٣.

٣٦. Elmer Sandemeyer، The Anti-Chinese Movement in California (Urbana University of Illinois Press، ١٩٧٣). p، ٤٢ .

٣٧- نيويورك تايمز، ١ تموز/ يوليو ١٨٧٠ ، والكلام منسوب للجنة مظاهرة زنبورية ضد الصينيين في نيويورك .

٣٨. . . : Gwendolyn Mink، Old Labor and New Immigrants in American Political Development (Ithaca، N. Y. : Cornell University Press)، ١٩٨٦)، p. ١٠٩ .

٣٩. Congressional Record، ٤٤th Cong. ، vol. ٢nd sess. ٥ . pt. ٣، ١٨٧٧ . p. ٢٠٠٥ .

٤٠- عدد يونيو/ حزيران ١٨٩٧ .

٤١-ليست لدي معلومات موثقة عن عدد سكان أستراليا قبل غزوالزنابير . ما أعلمه هوأن المنطقة التي تسمى اليوم بالولايات المتحدة كان فيها أيام كولومبس أكثر من ٤٠٠ أمة وشعب، وأن عددهم بحسب أبحاث أجراها علماء من جامعة بيركلي هوأكثر من ١٨ مليون إنسان، لم يبق منهم في إحصاء استدارة القرن العشرين سوى ٢٣٧١٩٦ مرشحا للموت . أما تقدير عدد سكان أميركا كلها أيام كولومبس فبين ١١٢ و١٢٥ مليونا . راجع في ذلك :

Henry F. Dobyns، Their Number Became Thinned: Native American Population Dynamics in Eastern North America. (Knoxville: University of Tennessee Press، ١٩٨٣) p. ٤٢ .

وتبلغ مساحة الأراضي التي اغتصبت في شمال أميركا وأستراليا (٢٥٩٩٧٨٦٠ كلم)، أي ما يعادل ١٠٧ مرات حجم بريطانيا ومعها كل المملكة المتحدة . هذه الأراضي المنهوبة من أهلها أكبر بعشرات الأضعاف من الأراضي التي غزاها التاتار والنازيون مجتمعين .

٤٢. Mark A. Kishlansky، ed. ، Sources of World History، Volume II، (New York: Harper Collins College Publishers، ١٩٩٥)، pp. ٢٦٦-٦٩

وفعلا، لوقدر للزنابير أن يصلوا بحرب الأفيون إلى مداها كما وصلوا بحرب الجراثيم في العالم الجديد إلى مداها، لما كان غريبا أن نسمع اليوم أن الصين -وقد كان فيها ٤٠٠ مليون إنسان أيام حرب الأفيون- كانت مجاهل خاوية، وأن سكانها كانوامجرد قبائل متوحشة يعيشون في الكهوف والغابات وينبت في رأسهم الريش والحشيش .

٤٣ - لآدم سميث كتاب بهذا العنوان نشره في عام ١٧٥٩ .

٤٤- Lewis Henry Morgan، Ancient Society، (Cleveland: World Publishing، ١٩٦٣)، p. ٦ .

ومورغان (١٨١٨-١٨٨١) أول من كتب دراسة واقعية عن نظام العائلة الهندي . كان من المعجبين بحياة الهنود، وقد انضم إلى شعب سينيكا وعاش معهم واتخذ لنفسه اسما هنديا هوتاياداهك Tayadaowuhkuh ، بل إنه مضى إلى الكونغرس ليدافع عنهم عندما بدأت شركات سكك الحديد تخترق أراضيهم .

وكان الرئيس وليم هوارد تافت قد رفع فكرة تكديس الثروة واكتناز المال إلى مرتبة الفضيلة في خطاب ألقاه في هافانا -والمكان ذودلالة كبيرة في حرب التمدين- أثناء افتتاح جامعتها الوطنية، عام ١٩٠٦ . راجع :

Frederick Pike، The United States and Latin America: Myths and Stereotypes of Civilization and Nature (Austin University of Texas Press، ١٩٩٢)، p. ١٤٧ .

٤٥- يقول نشيد الجنود في الفيليبين : «اللعنة، اللعنة، اللعنة على الفيليبينين/ لصوص قراصنة بثياب الخاكي فأتخنوا في حناجرهم/ تحت الراية [الأميركية] المتلألئة بالنجوم/ مَدِّنْوهم ببندقية/ وأعيدونا إلى وطننا الحبيب» .

Damn، damn، damn the Filipinos!

Cut throat khakiac ladrones!

Underneath the starry flag،

Civilize them with a Krag،

And return us to our beloved home.

٤٦- لم يكن لدى الزنابير مانع أن يعلن الهنود دولتهم أوولايتهم، بل إنهم هم الذين اقترحوا عليهم تسمية هذه القماقم المبعثرة «دولة»، فليس في الاتفاقيات ما يمنع ذلك، كما قال روبرت ووكر Robert Walker حاكم مناطق كنساس. راجع :

Charles J. Kappler، Indian Affairs: Laws and Treaties (Washington D.C.، Government Printing Office، ١٩٠٤)، vol. ٢، pp. ٧٥٦-٦٣.

٤٧. Western Journal of Commerce، July ٣٠، ١٨٦٤.

٤٨. Congressional Globe، ٣٩th Cng. ، ١st sess. ، ٣٦، pp. ٣١٢٥-٣١٢٦.

٤٩. Kansas Tribune، September ٢٠، ١٨٦٥.

٥٠- هناك قصص كثيرة مشابهة تجدها في الصفحات ١٤٦ - ١٥٨ من :

Robert Berkhofer، The White Manص s Indian: Images of the American Indian from Columbus to the Present (New York: Vintage، ١٩٧٨) pp. ١٤٦-١٥٨.

وللعلاقة الوطيدة بين التبشير ووزارة الدفاع راجع :

Ann C. Loveland، American Evangelicals and U.S. Military ١٩٤٢-١٩٩٣ (Baton Rouge and London: Louisiana State University Press، ١٩٩٦.

٥١. Arthur Smith، Chinese Characteristics (London، Oliphant، Anderson، and Farrier، ١٩٠٠)، p. ١٢٨.

٥٢. Arthur Smith، Village in China: A Study in Sociology (New York: Fleming H. Revell، ١٨٩٩)، p. ٣٤٦.

٥٣. Berkhofer، he White Manص s Indian، p١٧٣.

٥٤. Kirk Kicking Bird and Karen Ducheneaux، One hundred Million Acres (New york، Macmillan، ١٩٧٣. والعنوان كاف واف

٥٥. Congressional Globe، ٣٣ sess، . Cong. ، ٢٣، Appendix، pp. ٩٧٢، ٢١٣.

٥٦- مما لاحظه المبشر David Livingsone مثلا» أن الأسلحة النارية تفرض الاحترام والهيبة وتجبر الوثنيين على أن يكونوا عاقلين معنا خوفا من عواقب الشغب والتمرد الذي هوالموت المحتم» . هذا شاهد واحد من الشواهد الكثيرة التي يوردها Michael Adas في

Machines As the Measure of Men: Science، Technology، and Ideologies of Western Dominance (Cornell Studies in Comparative History) Ithaca، N. Y.: Cornell University Press، ١٩٨٩). pp. ١٦٠-١٦١.

والكتاب يُقرأ من غلافه الأحمر المزين بصورة بالأبيض والأسود لقطار يعبر قرية «همجية» وينفث دخانه الأسود في أجوائها، بينما «يقعي» على الأرض قريبا منه خمسة رجال معممين يحملقون فيه بدهشة. ومن الواضح أن هذا اللقاء بين الحضارة والهمجية يتم في قرية يفترض فيها أن تكون عربية أومسلمة.

٥٧. Annual Report of the Commissioner of Indian Affairs. National Cash Register Microfiche Edition. ١٨٦٤، p. ٣.

٥٨. House Report ٩٨، Cong. ٤٢d. ، March ٣٣d sess، ١٨٧٣ (S ١٥٧٨)، pp. ٣٩٢، ٤٠٩، ٤١٠.

كل الرسائل والوثائق التي يضمها هذا الملف تؤكد أن التصرف بأموال الهنود تم بدون استشارتهم.

٥٩- المصدر السابق.

٦٠- من «مذكرة تربوية» أعدتها الحكومة الاستعمارية في الهند، سنة ١٨٣٥ . راجع

Thomas Babington Macaulay، ز Minute of ٢ Feb ١٨٣٥، on Indian Education، س Macaulay Prose and Poetry، (Cambridge، MA: Harvard University Press، ١٩٥٧) p. ٧٢٩.

٦١- من غير الممكن هنا الاسترسال في قصة «ثروة الأمم» مع «المعازل الهندية، وكيف أن شركات سكك الحديد والأخشاب والفحم الحجري والمعادن على اختلافها والنفط والغاز نهبت البقية الباقية من أوطانهم وسلبتهم هذا الهامش الرمزي من حرياتهم، وفضحت كل أسطورة سلطتهم الوطنية وسيادتهم واستقلالهم. هذا الاسترسال قد يأخذني بعيدا عما أنا بصدده هنا، خاصة وأن مراجعه كثيرة ومملة. لقد

راجعت لذلك ما لا يعلم عدده إلا الله من الوثائق في المحفوظات الوطنية **National Archives**، وفي مركز السجلات الاتحادي **Federal Record Center** في **Fort Worth** بتكساس، وفي محفوظات الرابطة التاريخية **Kansas State Historical Society** لولاية كنساس، ونظيرتها في ولاية أوكلاهوما، ومحفوظات معهد **Gilcrease** في **Tulsa** بأوكلاهوما أيضا، إضافة إلى الوثائق الحكومية وأهمها «التقارير السنوية لمفوض الشؤون الهندية» وسجلات ما يعرف باسم **Congressional Globe**، ووثائق من مجلسي الكونغرس. وكلها يتعلق بتلك الفترة التي ظن فيها الهنود أن المعاهدات هي خاتمة المطاف وأن الاستقلال والسيادة والحرية صارت تحصيل حاصل.

٦٢- المصدر في الحاشية ٥٥.

٦٣. **Congressional Globe، ٤٠th Cong، sess. ، 1st. ، ٣٨، ٦٨٦-٨٧.**

٦٤- كنت قد ترجمت هذه الرسالة ونشرتها مع مقدمة **gih** في مجلة المستقبل العربي، نوفمبر/ تشرين الثاني ٢٠٠٣، السنة ٢٦، العدد ٢٩٧.

٦٥- ما لفت نظري في حديث واسون تلك الليلة المخصصة لتأبين ضحايا المدارس الداخلية الهندية هوإصراره على الربط بين ماجرى في هذه المدارس التي أفني فيها ربع الهنود الناجين من مختلف أشكال الإبادات وبين تصريح لكونداليزا رايس (يوم كانت مستشارة للأمن القومي) حول ضرورة «تغيير العقل العراقي كمقدمة لتغيير العقل العربي». والواقع أنني لم أستطع العثور على هذا التصريح إلا في مقالة واحدة للدكتور طارق علي، لكنني عثرت على عشرات التصريحات والتلميحات الأميركية الرسمية إلى ضرورة إعادة النظر في مناهج التدريس وضرورة استئصال جذور الكراهية في الثقافة العربية السائدة وفرض رقابة على ثقافة المساجد، ووضع حد لما يسمى بعداء السامية في وسائل الإعلام، وبذل كل مستطاع لتغيير سلوك العرب ونظرتهم السائدة للولايات المتحدة وإسرائيل، بل وعن ضرورة قصف العواصم العربية بالقنابل النووية في حال فشل مثل هذه المحاولات.

Michael Savage، From the May ٢٠٠٤، ١٢ Savage Nation

You know، I can fly an F-١٥، put two nukes on 'em and I'll make one pass. We won't have to worry about Syria anymore. (The crowd roared with applause).

Rep. Sam Johnson، R. Texas، Feb ١٩، ٢٠٠٥.

٦٦. **David Wallace Adams، Education for Extinction: American Indians and the Boarding School Experience، ١٨٧٥-١٩٢٨ (Lawrence: University Press of Kansas، ١٩٨٠) p. ٢١٦**

٦٧- هذا السيناريوالذي يرويه تينكر يكاد يكون مثاليا لكل قصص الاغتصاب التي جمعت كثيرا من تفاصيلها «تجمع الأمم االأولى **Assembly of First Nations**» في:

Breaking the Silence: An Interpretive Study of Residential School Impact and Healing as Illustrated by the Stories of First Nations Individuals (Ottawa: Assembly of First Nations، ١٩٩٤).

وكذلك في كتاب ذي عنوان يروي القصة كلها: «مسروق من أحضاننا: خطف أولاد الأمم الأولى...»:

Suzanna Fournier and Ernie Crey، Stolen from our Embrace؛ The Abduction of First Nations Children... (Vancouver، B. C.: Douglas and McIntyre، ١٩٩٧.

٦٨- عن انتحار الأطفال الهنود بسبب اغتصابهم في هذه المدارس، انظر الفصل الذي كتبه سي إي إليوت بعنوان: «الانتهاك الجنسي والجسدي لأطفال الهنود» في:

Suicide، ed. ، David Lester ش٩٢ (Denver: American Association of Suicidology، ١٩٩٢). pp. ٦١-٢.

٦٩. **J.R. Miller، Shingwauk's Vision: A History of The Indian Residential Schools (Toronto: University of Toronto Press، ١٩٩٦). p.٣٠-٣٢٩.**

٧٠. **Rix Rogers، Special Advisor to the Minister of National Health and Welfare on Child Sexual Abuse، quoted in ز report of abuse may be low، expert says، س، Toronto Globe and Mail، June ١، ١٩٩٠.**

٧١. **Suzanna Fournier and Ernie Crey، Stolen from our Embrace، p. ٧١.**

٧٢. **Richard Henry Pratt، ز The Advantage of Mingling Indians with Whites، Proceedings and**

Washington DC : National) . ١٨٩٥ ،Addresses of the National Education Association
. ٢-٧٦١ . pp . ١٨٩٥ . Educational Association

٧٣. Michael . C . Coleman ، American Indian Children at School ، ١٨٥٠-١٩٣٠ (jackson : University of Mississippi Press ، ١٩٩٣)l . p . ٤٦.

٧٤. Christian Parenti ، Lockdown America : Police and Prisons in the Age of Crisis (London : Verso ، ١٩٩٩) pp . ٢١١-٤٤ .

٧٥. Christian Parenti ، Lockdown America : Police and Prisons in the Age of Crisis (London : Verso ، ١٩٩٩) pp . ٢١١-٤٤ .

٧٦. Adams ، Education for Extinction ، p . ١٥١ .

٧٧. K . Tsianina Lomawaima ، They Called It Prairie Light : The Story of Chilocco Indian School ، (University of Nebraska Press ؛ Reprint edition ، August ١٩٩٥) p . ٦٩ .

٧٨. Adams ، Education for Extinction ، p . ١٤٩ .

٧٩- كل هذه الأرقام مستمدة من كتاب «التعليم للإبادة» . أدامس ، المصدر السابق .

٨٠. Shingwauk ، Millerص p ، s Vision . ٢٤٩ .

٨١. Marilyn Milward ، زCleanBehind the Ears : Micmac Parents ، Childrenand the Shubenacadie Residential School ، ز New Maritimes ، Mar . /Apr . ١٩٩٢ ، p١١ .

٨٢. The Miriam Report (Meriam ، et al) ، Problem of Indian Administraton ، pp ١١-١٢ ، ٣٣٢ ، ٣٩٢-٣٩٣ ، ٥٧٧-٥٧٩ .

وهوتقرير أعده فريق من علماء الاجتماع باشراف لويس مريم . Lewis M . Meriam

٨٣. Celia Haig-Brown ، Resistance and Renewal ، (Vancouver ، BC ، Canada Tillacum Library ١٩٩١) pp . ١٥-٦ .

٨٤. Adams ، Education for Extinction ، pp . ١٠٨-١١٠ .

٨٥. Michael . C . Coleman ، American Indian Children at School ، p . ٤٢ .

٨٦. Adams ، Education for Extinction ، p . ١٤٠ .